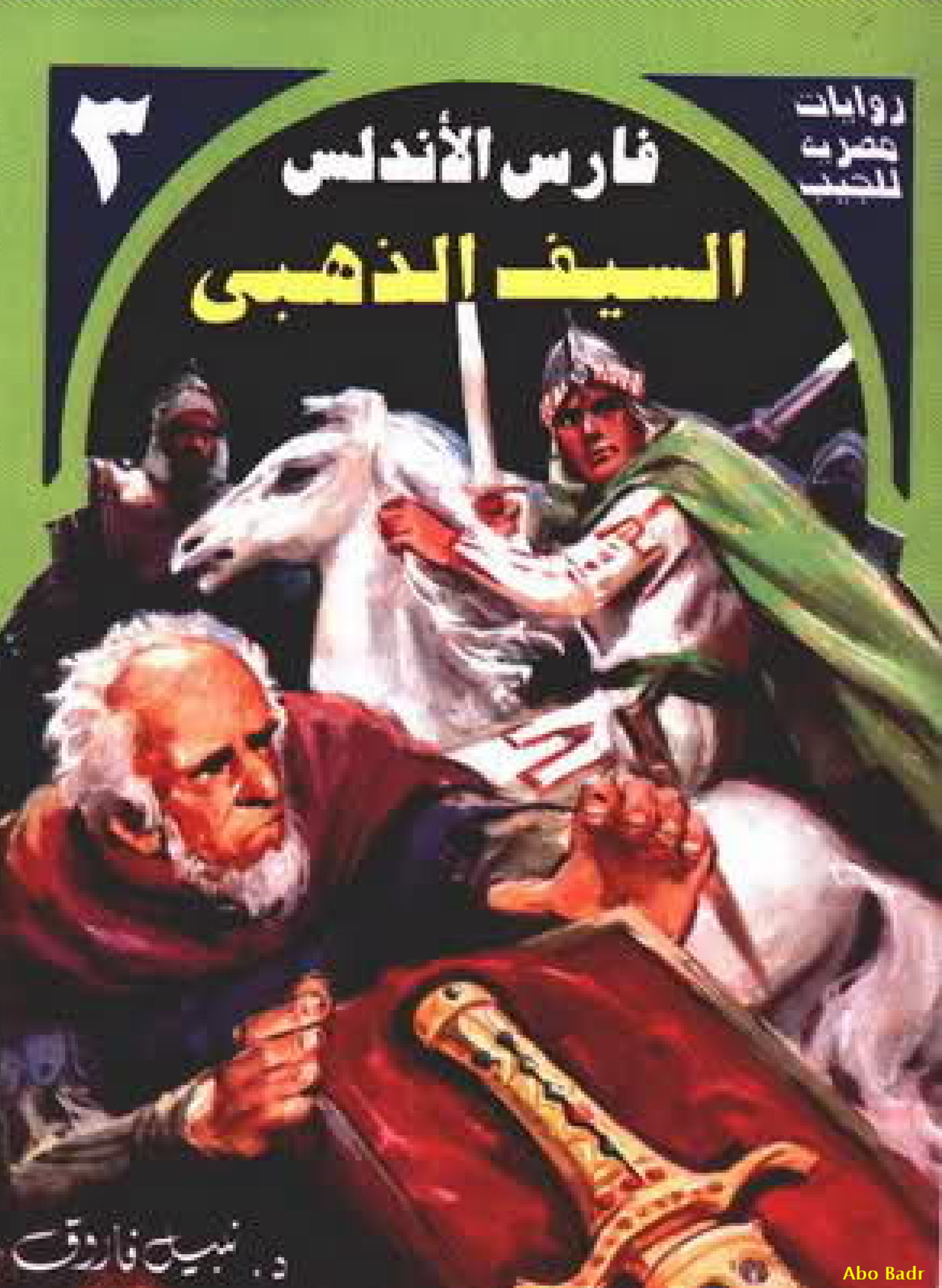


روايات
مصرية
للجيب
٣
فارس الأندلس
السيف الذهبى
د. نبيل فاروق
Abo Badr

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ـ مهمة ..

ارتفع صهيل جواد عربي ، يشق سكون السهول الخضراء ، الممتدة على مدى البصر ، على مشارف (غرناطة) ، قبل لحظات من ظهور الجواد نفسه ، وهو ينطلق مسابقًا للريح ، دون سرج أو لجام ، وعلى متنه شاب وسيم الطلعة ، ممشوق القوام ، يتطاير شعره الأسود الفاحم فوق رأسه ، وتتألق على شفتيه ابتسامة حماسية مرحة ، وهو يلكز بطن جواده بكعبيه في رفق ، ويجذب معرفته الناعمة ، هاتفًا :

ـ هيا يارفيق .. هيا ..

ومن خلف الجواد الأبيض الأصيل ، ظهر جواد آخر ، بني اللون ، يمتطيه رجل قوي ، أشيب الفودين ، له لحية أنيقة ، وشارب ناعم ، اختلط بياضهما بسوادهما ، وحمل وجه الرجل ابتسامة مماثلة لابتسامة الشاب ، وهو يهتف بجواده :

ـ هيا .. لا تسمح له بهزيمتنا .. هيا .

ولكن جواد الشاب كان قويًا بحق ، يجيد الاستجابة لأوامر راكبه الصارمة ، وينطلق فوق السهول الخضراء بأقصى ما يمكنه من سرعة ، حتى بلغ براكبه شجرة ضخمة الجذع ، وارفة الأغصان ، غزيرة الأوراق ، فجذب راكبه معرفته

البيضاء الناعمة فى حزم ، جعل الجواد يطلق صهيلًا طويلًا ، ويدفع حافريه الخلفيين فى الأرض ، ويتوقَّف عن العدو ، ليضرب الأرض بحافريه الأماميين ، وكأنما يعلن أسفه عن انتهاء السباق ، ثم توقَّف ساكنا ، وقد انتفخ صدره فى قوة ، وغاصت بطنه فى رشاقة ، واشرأبّ عنقه فى ترقب ، حتى لحق به الجواد الآخر ، وهتف راكبه فى صوت يخالطه اللهاث :

ـ لا بأس .. لقد فزت هذه المرة يا (فارس) .

لوّح (فارس) بكفه ، وابتسم فى سعادة ، وهو يقول :

ـ لقد اتبعت تعليماتك فى دقة يا (مهاب) .

ربَت (مهاب) على ظهر تلميذه فى فخر ، وهو يقول :

ـ يُسعدنى أن هزمتنى بتعليماتى يا ولدى .

قال (فارس) ، وهو يجذب معرفة جواده ، ليبدأ مع مدرِّبه رحلة العودة :

ـ إننى أدين بكل ما تعلمته ، من فنون الفروسية ، إليك يا أستاذى .

جذب (مهاب) عنان جواده بدوره ، وسارا متجاورين ، و (مهاب) يقول :

ـ وهذا من دواعى فخرى ياولدى .

سأله (فارس) فى اهتمام :

ـ ولكن هناك أمر يدهشنى يا (مهاب) .

قال (مهاب) فى بساطة :

ـ ماهو ياتلميذى النجيب ؟

سأله (فارس) :

ـ إنك تستخدم سرجًا ولجامًا لحصانك ، وكذلك يفعل الشيخ ، و (فهد) ، فلماذا لقنتنى امتطاء جوادى دونهما ؟

لم يجب (مهاب) على الفور ..

لقد فجرَّ السؤال فى أعماقه ذكريات بعيدة ..

وانطلق خياله يسبح مع تلك الذكريات ..

وفى أعماقه ، رأى نفسه قائدًا لفرسان أمير عظيم ، يختال بين رجاله فى ثوب أبيض وخوذة فضية ، ويتدلّى من نطاقه الأخضر سيف قوى ، على متن جواد ناصع البياض ، دون سرج أو لجام ..

فارس عظيم ، يواجه هجوم القشتاليين فى بسالة وشجاعة ؛ ويهوى بسيفه على أعناقهم وصدورهم ، مدافعًا عن حصنه .. آخر حصون (قرطبة) ..

ولكن يا للخسارة ! ..

سقط آخر الحصون ، تحت ضربات القشتاليين ، وسقط الفارس العظيم بطعنة غادرة ..

ومازال (مهاب) يذكر آخر كلمات الفارس ..

« الصغير أيها الوزير .. الصغير يا (مهاب) .. الصغير يا (فهد) » ..

نطقها ولفظ أنفاسه الطاهرة الأخيرة بين أيديهم ..

ولم يكن هناك مجال للتراجع ..

كانت وصية أعظم الفرسان ..

وأعظم الرجال ..

وبلا تردد ، حمل الوزير و (فهد) و (مهاب) الأمير الصغير ، الذى لم يتجاوز عامه الأوّل بعد ، وحملوا ثياب الفارس ، وسيفه ، وامتطى الوزير جواده ..

وغادروا (قرطبة) ، والدموع تملأ عيونهم ، حزنًا على الفارس الصريع ، والحصن الضائع ..

وهناك .. فى معسكرهم الصغير ، على مشارف (غرناطة) ، أقسم الثلاثة على رعاية الصغير ، ومنحه كل خبراتهم وفنونهم ..

ونما (فارس) فى هذا المعسكر الصغير ..

وتعلّم الحكمة والآداب من الوزير ، والفروسية والقتال من (مهاب) ..

تعلّم كيف يقاتل كما كان يقاتل والده ..

كيف يمتطى جواده مثله ، دون سرج أو لجام ..

كيف يصبح امتدادًا لأعظم الفرسان ..

وهكذا أصبح الصغير شابًا ..

وصار فارسًا ..

أعظم فرسان عصره ..

فارس (الأندلس) ..

« لماذا يا (مهاب) ؟ »

انتزع السؤال (مهاب) من ذكرياته ، فانتفض انتفاضة خافتة ، لم تفلتها عين الشاب ، فانعقد حاجباه ، وهو يسأل (مهاب) :

ــ ماذا حدث ؟

هزّ (مهاب) رأسه ، وهو يقول فى حزم :

ــ لا شىء .. لقد شرد فكرى لحظات .

أدرك (فارس) أن لهذا الشرود صلة مباشرة بسؤاله ، إلا أنه كان يعلم أن (مهاب) لن يجيب سؤاله أبدًا ، ولن يكشف له سره قط ، فتجاهل السؤال بدوره ، وسأل (مهاب) فى هدوء ظاهرى ، نجح فى إخفاء ذلك البركان الثائر فى أعماقه :

ــ ألم تصلك أخبار جديدة عن القشتاليين ؟

بدا من الواضح أن (مهاب) قد ارتاح لتجاوز سؤال

(فارس) ، فقد أجاب على الفور :

ـــ يقولون فى (غرناطة) إن القشتاليين يحاولون تنظيم صفوفهم ، استعدادًا للهجوم على (غرناطة) ، وإن ملكهم (فرناندو) يحاول استمالة بعض أمراء العرب ؛ ليقلّل من المقاومة التى ستلاقيها جيوشه ، إذا ماحاولت غزو (غرناطة) .

قال (فارس) فى حزم :

ـــ لن ينجح فى استمالة عربى واحد .

مطّ (مهاب) شفتيه فى أسف ، وقال :

ـــ كنت أتمنى هذا يا ولدى ، ولكن يبدو أن المال يجد طريقه دائمًا ، بين أصحاب النفوس الضعيفة .

قال (فارس) فى صرامة :

ـــ ليس بين العرب .

ابتسم (مهاب) ابتسامة مشفقة ، وقال :

ـــ العرب بشر كغيرهم يا ولدى ، ومن الطبيعى أن تجد ضعاف النفوس بين البشر .

لم يكن هذا القول يروق لـ (فارس) ، ولكنه اكتفى بمطّ شفتيه ، وزوى مابين حاجبيه ، دون أن يعترض مرة أخرى ، ثم ازداد انعقاد حاجبيه فجأة ، وهو يتطلّع إلى نقطة بعيدة ، لم

يلبث أن أشار إليها ، قائلًا :

ـــ أهذا (فهد) ؟

تطلّع (مهاب) إلى حيث يشير (فارس) ، وبدا له الجواد الأسود واضحًا ، تحت ضوء الشمس ، وهو ينطلق عبر السهول ، متجهًا إلى المعسكر الصغير ، إلا أن راكبه لم يكن زنجيًّا مثل (فهد) ، بل بدا أشبه بفارس من فرسان قصر الحمراء(*) ، بزيه المزركش ، ودرعه الثقيل ، فقال (مهاب) :

ـــ لا .. إنه ليس (فهد) .

جذب (فارس) معرفة جواده ، وهو يقول :

ـــ فلنسرع إذن .

سأله (مهاب) ، وهو ينطلق بجواده خلفه :

ـــ ما الذى يقلقك هكذا ؟ أليس من الطبيعى أن يزورنا أشخاص بخلاف (فهد) ؟

(*) قصر الحمراء = آخر وأعظم حصون العرب فى (الأندلس) ، وهو أهم آثار (غرناطة) ، وما يزال قائمًا حتى الآن ، وعلى مقربة منه كاتدرائية من الطراز القوطى ، ولقد سقط فى أيدى القشتاليين عام ١٤٩٢ م ، بعد حصار طويل .

أجابه (فارس) ، وهو يحثّ جواده على الإسراع :

ـــ بلى ، ولكن ليس هناك من أثق فيه من زائرينا سواه .

كان ينطلق بجواده فى سرعة بالغة ، أجبرت (مهاب) على أن ينطلق بها بدوره ، وهو يتساءل عن ذلك الزائر العجيب ، الذى لم يعتد معسكرهم الصغير استقبال مثله قط ..

وفجأة جذب (فارس) ، معرفة جواده (رفيق) بطريقة خاصة ، جعلت (رفيق) يتوقّف على الفور ، دون أن يصدر عنه أدنى صوت ، فى حين أطلق جواد (مهاب) صهيلًا خافتًا ، عندما أجبره الأخير على التوقّف المباغت ، قبل أن يسأل (فارس) فى حدة :

ـــ لماذا توقّفت هكذا ؟

أجابه (فارس) فى حزم :

ـــ يبدو أن الشيخ يتعرّض للخطر .

التفت (مهاب) فى حركة سريعة إلى المعسكر ، ورأى الفارس ممسكًا بجواد الشيخ ، والشيخ يتقدّم ليركب جواده ، فقال فى توتر :

ـــ أنت على حق ، فالشيخ لايغادر المعسكر أبدًا .

استلّ (فارس) سيفه ، وهتف فى صرامة :

ـــ ولن يغادره بغير إرادته .

ولكز جواده فى حزم ، مستطردًا :

ـــ هيا يا (رفيق) .

وكطير كاسر ، انطلق (رفيق) نحو المعسكر ، قبل حتى أن يستعد (مهاب) للحاق به ، والتفت الشيخ فى دهشة إلى الجواد الأبيض ، وفوقه (فارس) ، يهتف :

ـــ أخطأت هدفك يا رجل .

قبل أن يقفز عن جواده ، ويستلّ سيفه فى وجه الفارس الآخر ، الذى أسرع يستلّ سيفه بدوره ، وصلصل السيفان فى لقاء عنيف ، اختلط بصيحة الشيخ :

ـــ توقّف يا (فارس) .

توقّف (فارس) عن القتال على الفور ، والتفت فى حيرة وتساؤل إلى الشيخ ، الذى أضاف فى غضب :

ـــ لا ترفع سيفك فى وجه ضيف أبدًا .

ارتفع حاجبا (فارس) فى دهشة ، وهو يقول :

ـــ ضيف ؟!

ثم التفت فى حيرة إلى الفارس ، الذى أعاد سيفه إلى غمده ، دون أن ينبس ببنت شفة ، والشيخ يقول فى غضب :

ـــ ليس هذا ما علّمتك إياه يا (فارس) .. الاندفاع والتهوّر شيمة الحمقى فقط .

تضرّج وجه (فارس) بحمرة الخجل ، فى نفس اللحظة التى وصل فيها (مهاب) ، وقفز عن جواده ، قائلًا بابتسامة عريضة :

ــ وشيمة الشباب أيضًا يا سيّدى .

قال الشيخ فى صرامة :

ــ الفاشلون منهم فحسب .

لم يرق لـ (فارس) أن يتمّ توبيخه هكذا ، أمام شخص غريب ، فأشاح بوجهه فى ضيق ، فى حين امتطى الشيخ جواده ، وقال للفارس الآخر فى وقار وشموخ :

ــ هيا بنا يا ولدى .

امتطى الفارس الآخر جواده بدوره ، واستعدّ للسير ، ولكن الشيخ استوقفه ، والتفت إلى (فارس) ، قائلًا فى حزم :

ــ (فارس) .

التفت إليه (فارس) ، وحاول إخفاء ضيقه ، وهو يقول :

ــ نعم يا سيّدى .

قال الشيخ فى لهجة تحمل مزيجًا من الحزم والحنان :

ــ استعد يا (فارس) ، فأمامك مهمة جديدة .

شحذت العبارة حواس (فارس) وحماسه ، وأزالت فى لحظة

واحدة ما كان يملأ نفسه من ضيق ، وهو يسأل الشيخ فى لهفة :

ــ متى يا سيّدى ؟

أجابه الشيخ فى حسم :

ــ فور عودتى من رحلتى القصيرة هذه .

سأله (فارس) فى لهفة أشدّ :

ــ وما طبيعة المهمة هذه المرة ؟

هزّ الشيخ رأسه نفيًا ، وقال :

ــ لست أدرى .

تطلّع إليه (فارس) و (مهاب) فى دهشة ، فابتسم ابتسامة خفيفة ، وتابع :

ــ لست أدرى بعد .

ثم لكز جواده ، مستطردًا :

ــ استعدّ فحسب .

وانطلق مع الفارس مبتعدين ، تاركًا خلفه (فارس) ، وقد غاص فى بحر من الدهشة والحيرة والتساؤل ، دون أن يدرى من أمره سوى أنه ينتظر مهمة ..

مهمة غامضة ..

* * *

٢ ـ السيف ..

هبّ النسيم رقيقًا ، على وجه الأميرة (جميلة) ، ابنة أمير (غرناطة) ، وداعب خصلات شعرها الأسود فى نعومة ، قبل أن تلتقطه أنفاسها العطرة ، وتملأ به صدرها ، ثم تطلقه فى تنهيدة حارة ، وعيناها تسبحان فى الأفق ، فابتسمت وصيفتها (فاطمة) ، وقالت :

ـ يلوح لى أن سيّدتى تستعيد ذكرى محبّبة إلى نفسها .

تنهّدت (جميلة) مرة أخرى ، وقالت :

ـ صدقت يا (فاطمة) .. إنها ذكرى محبّبة ، وقريبة ، لم تفارق أحلامى أبدًا ، منذ ذلك اليوم ، الذى ..

تضرّج وجهها بغتة بحمرة الخجل ، وعجزت عن إتمام عبارتها ، فافترّ ثغر (فاطمة) عن ابتسامة حنون ، وهى تقول فى خفوت :

ـ فهمت .

أشاحت (جميلة) بوجهها فى خجل ، وهى تقول :

ـ فهمت ماذا ؟

أدنت (فاطمة) شفتيها من أذنى الأميرة ، وهمست :

ـ فهمت نوع الذكرى .



تنهّدت (جميلة) مرة أخرى، وقالت: صدقت يا (فاطمة) .. إنها ذكرى محبّبة، وقريبة، لم تفارق أحلامى أبداً ..

تضاعف حياء (جميلة) ، وهى تغمغم :

ــ مخطئة أنت ولاشك .

اتسعت ابتسامة (فاطمة) ، وامتلأت أكثر بالحنان ، وهى تقول :

ــ إننى لم أقل شيئًا بعد .

لوّحت (جميلة) بيدها ، قائلة ، والحياء يأخذ منها مأخذه :

ــ لا تقولى شيئًا إذن .

قالت (فاطمة) فى حماس :

ــ كيف ؟ .. لقد رأيت والده منذ لحظات .

التفتت إليها (جميلة) فى لهفة ، تسألها :

ــ والد من ؟!

أجابتها (جميلة) ، وهى تغمز بعينها فى خبث :

ــ والد ذلك الفارس الأبيض ، ذى النطاق الأخضر .

عاد وجه جميلة يتضرّج بحمرة الخجل ، وهى تسألها :

ــ أين ؟ .. ومتى ؟

أشارت (فاطمة) إلى النافذة ، وقالت :

ــ رأيته من هذه النافذة ، منذ لحظات ، كان يسير بصحبة أحد فرساننا ، نحو جناح والدك الخاص .

هتفت (جميلة) :

ــ حقًا ؟! .. وهل كان (فارس) بصحبته ؟

لم تلبث أن شعرت بحياء شديد ؛ للهفتها الواضحة عليه ، فغضّت من بصرها ، وتضاعفت حمرة الخجل فى وجنتيها ، فى حين أجابت (فاطمة) :

ــ لا .. كان وحده .. يبدو أن مولاى الأمير يريد مقابلته لشأن ما .

مضت لحظات ، خيم فيها الصمت التام على حجرة الأميرة ، قبل أن تتمتم (جميلة) :

ــ إنه ليس والده .. إنه مربيه ومعلّمه فحسب .

ثم استدركت بسرعة ، وكأنها تخشى أن تسبح أفكار (فاطمة) بعيدًا :

ــ هكذا أخبرنى والدى .

أومأت (فاطمة) برأسها متفهّمة ، وقالت :

ــ ولكن فيم يريد مولاى ذلك الشيخ فى رأيك ؟

هزّت (جميلة) رأسها فى بطء ، وأجابت ، وعيناها تعودان للشرود :

ــ من يدرى ؟ .. لقد أخبرنى أبى يومًا أنه لا يلجأ إلى هذا الشيخ ، إلا عندما تتعقّد الأمور ، وهذا يعنى أن الأمور قد تعقّدت الآن .

وازداد شرودها ، وهى تضيف :

ــ وأن (فارس) سيظهر مرة أخرى .

* * *

لم يكد الشيخ يدلف إلى الجناح الخاص لأمير (غرناطة) ،

حتى التفت إليه الأمير ، وقال فى لهفة من انتظر طويلًا :
ــ مرحبًا أيها الوزير .
انحنى الشيخ نصف انحناءة ، أمام الأمير ، وقال :
ــ لم أعد وزيرًا يا مولاى .. لقد صرت شيخًا ضعيفًا فحسب .
اقترب منه الأمير ، وربّت على كتفه ، وهو يقول :
ــ بل صرت أحكم الحكماء أيها الوزير .
دعاه للجلوس ، وصبّ له بنفسه قدحًا من الماء ، قال الشيخ وهو يتناوله من يده :
ــ عفوًا يا مولاى .. أما كان ينبغى أن تستدعى أحد خدمك .
أجابه الأمير فى تواضع جم :
ــ سيّد القوم خادمهم أيها الوزير .
ابتسم الوزير ، متمتمًا :
ــ أدام الله نعمته عليك يا مولاى .
تنهّد الأمير ، وقال :
ــ دعك من هذا أيها الوزير ، واستمع إلىّ جيّدًا .
اعتدل الشيخ بقدر استطاعته ، وقال :
ــ كلّى آذان صاغية يا مولاى .
بدا الأمير مهمومًا قلقًا ، وهو يقول :
ــ لا شك عندى فى أن أخبار استعدادات القشتاليين قد بلغتك .

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وقال .
ــ سمعت أنهم يحشدون جيوشهم على حدودنا ، وأننا نحشد جيوشنا فى مواجهتهم أيضًا .
قال الأمير :
ــ هذا صحيح .. من الواضح أنهم يستعدون لحرب جديدة ، فى محاولة لانتزاع (غرناطة) منا .. إننا لا نخشاهم فى الواقع ، فجيشنا مستعد للقائهم ، ولكن ما يقلقنى هو أن (فرناندو) ، ملك القشتاليين ، لا يكتفى بقتال الجيوش ، وإنما يحاول إغواء بعض أمرائنا .
سأله الشيخ فى اهتمام :
ــ وكيف له أن يفعل ؟
لوّح الأمير بأصابعه ، قائلًا :
ــ بالمال أيها الوزير .. نفحة الشيطان ، التى تعمى دائمًا أبصار البشر ، وتميت قلوبهم وضمائرهم .
قال الشيخ :
ــ ولكن أمراءنا لا يحتاجون إلى المال يا مولاى !
مطّ الأمير شفتيه ، وتنهّد فى أسف ، وهو يقول :
ــ هذا ما يظنه الناس أيها الوزير ، ولكن الواقع أن بعض أمراء (الأندلس) هزمتهم شهوة المال ، فراحوا يجمعونه بكل وينفقونه فى سفه منقطع النظير .. أتصدّق أن أحدهم قد صنع

لجاريته الأثيرة بركةمن ماء الورد ، تحيط بها شواطئ من التبر(*) رفع الشيخ حاجبيه فى دهشة ، هاتفًا :

ـــ إلى هذا الحد ؟!

أومأ الأمير برأسه إيجابًا فى أسف ، فتابع الشيخ :

ـــ ولكن أى مال يمكن أن يغوى أميرًا بهذا الثراء ؟

قال الأمير :

ـــ ربما ليس المال فى حد ذاته ، ولكن روعة الصورة التى يُقدَّم بها .

بدا التساؤل على وجه الشيخ ، فتابع الأمير :

ـــ كانت فكرة شيطانية أشار بها على (فرناندو) مستشاره الخاص (هاكل) .. وهو يهودى داهية كما تعلم .. لقد دفع أمهر صائغى الملك إلى صنع سيف من الذهب الخالص ، له مقبض من اللؤلؤ والماس ، وجراب مزدان بكل أنواع الأحجار الكريمة ، بحيث صار ذلك السيف الذهبى كنزًا يسيل له لعاب أثرى الأثرياء ، وتزوغ له عيون كل شره محبّ للمال .. ولقد أرسل (فرناندو) مستشاره (هاكل) هذا ، حاملًا ذلك السيف الذهب ، إلى الأمير (عبيدة) ، أقوى أمراء (الأندلس الصغرى) ، تحت حراسة مشدّدة .

(*) حقيقة تاريخية ، والتبر هو (تراب الذهب) ، وقد صنع ذلك الأمير لجاريته هذه البركة . لأنها أرادت أن تلهو بالطمى ، كأطفال الأزقّة .

سأله الشيخ فى اهتمام :

ـــ وهل تخشى أن يُذهب السيف عقل الأمير (عبيدة) يا مولاى ؟

أومأ الأمير برأسه إيجابًا ، وقال :

ـــ لست مستعدًا للمخاطرة باحتمال حدوث هذا ، ولا يمكننى فى الوقت نفسه أن أمنع وصول (هاكل) إلى (عبيدة) بالقوة ، فلقد منحه (عبيدة) الأمان ، ووافق على لقائه ، وتعرضى لشخص تحت حماية الأمير (عبيدة) ، مهما كان هذا الشخص ، سيثير حتمًا ثائرة الأمير ، وقد يدفعنا إلى حرب أهلية ، يعلم الله (سبحانه وتعالى) وحده مداها ، ونحن فى غنى عن أية قلاقل داخلية ، والعدو يتربّص بنا على الحدود .

هزَّ الشيخ رأسه متفهمًا ، وقال :

ـــ فهمت يا مولاى .. إنك تريد أن تمنع (هاكل) هذا من بلوغ قصر الأمير (عبيدة) ، والاجتماع به ، دون أن يتخذ هذا المنع صفة التدخل ، أو يحمل ما يشير إليك .

قال الأمير فى ارتياح :

ـــ هذا صحيح أيها الوزير .

ثم استدرك فى سرعة :

ـــ وهذا لا يعنى أننى أخشى الأمير (عبيدة) .

قال الشيخ فى سرعة :

ـــ إننى أفهم يا مولاى .. أفهم جيدًا .

بدا الارتياح الشديد على وجه الأمير ، وقال :

ــ هذا السيف الذهبى فتنة أيها الشيخ ، وكل ما أسعى إليه هو قتل الفتنة فى مهدها .

ثم التفت إليه ، مستطردًا فى حسم :

ــ ودون إشعال نيران فتنة أخرى .

نهض الشيخ فى بطء ، وهو يقول :

ــ فهمت تمامًا يا مولاى .. إنك تريد مهمة محدودة ، ينبغى أن تقوم بها فرقة صغيرة للغاية .

غمغم الأمير :

ــ أو أقل من هذا .

ابتسم الشيخ ، وهو يقول فى بطء :

ــ بالتأكيد يا مولاى .. إنها فرقة من فارس واحد ، أو فارسين .

قال الأمير فى حسم :

ــ المهم أن يكون أحدهما هو (فارس) ؛ فأنا واثق أنه سيفعل هذا من أجلى .

قال الشيخ فى صوت قوى النبرات :

ــ معذرة يا مولاى ، ولكنه سيفعل هذا (بإذن الله) من أجل الحق ، ومن أجل هذا البلد .

وأضاف فى صرامة :

ــ من أجل (الأندلس) .

وكانت البداية ..

* * *

٣ ــ القافلة ..

تعلقت عينا (فرناندو) ، ملك القشتاليين ، بحمامة وحيدة ، تضرب بجناحيها الهواء فى قوة ، وهى تسبح فيه فى انسيابية جميلة ، متجهة نحو القصر الملكى فى (قرطبة) ، وهز الكأس الذهبية فى يسراه ، وهو يتمتم فى خفوت شديد :

ــ يبدو أنها هى .

التفتت إليه الملكة (إيزابيلا) ، وسألته فى حدة :

ــ ماذا تقول ؟

أجابها فى خشونة ، دون أن يلتفت إليها :

ــ إننى أتحدث مع نفسى .

ثم التفت إليها فى حركة عنيفة ، مستطردًا :

ــ وأظن هذا من حق كل ملك .. أليس كذلك ؟

احتقن وجهها فى غضب ، دون أن تنبس ببنت شفة ، فى حين أشاح عنها هو بوجهه ، وظل يتابع الحمامة المنفردة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة ، عندما رآها تدلف إلى برج القصر ، وتملكته نشوة مباغتة ، جعلته يلتفت إلى (إيزابيلا) ، ويرفع كأسه عاليًا ، هاتفًا :

ــ فى صحة ملكة (الأندلس) المقبلة .

وجرع الكأس دفعة واحدة ، وهى تحدّق فيه بدهشة ، قبل أن تهتف فى غضب :

ـ لاريب أنك مصاب بالجنون .

فهقه ضاحكًا ، على عكس ما كانت تتوقّع ، وألقى بكأسه على المائدة ، وهو يقول :

ـ ومن ذا الذى يشاهد جمالك الفتان ، دون أن يصاب بالجنون يا عزيزتى (إيزابيلا) ؟

حدّقت فى وجهه بدهشة بالغة ، ثم غمغمت ، وقد تسلّلت إلى شفتيها ابتسامة :

ـ يبدو أنك قد شربت وعاء الخمر كله .

مال نحوها ، هاتفًا :

ـ بل سكرت من خمر عينيك يا مليكتى .

وعلى الرغم من أسلوبه المبتذل ، فقد أسعدتها عبارته ، فهتفت :

ـ عجبًا !! .. أهذا هو (فرناندو) الذى أعرفه ؟

قهقه ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ بل هذا هو (فرناندو) المنتصر ، ملك (الأندلس) المرتقب ، وصاحب أعظم نصر فى تاريخ المنطقة كلها .

ثم التفت إليها فى حركة سريعة ، وأضاف :

ـ ولكن هل راقت لك عبارتى ؟

تمتمت :

ـ بالتأكيد .

امتلأ وجهه بابتسامة كبيرة ، وبرقت عيناه بنظرة ساخرة ظافرة ، أطارت نشوتها بعبارته ، وجعلتها تعود لتقطب جبينها فى غضب ، فى نفس اللحظة التى تعالت فيها دقّات متعجّلة على باب جناحهما الخاص ، فالتفت (فرناندو) إلى البـاب ، وهتف فى لهفة :

ـ ادخل .

فتح حارسه الخاص الباب ، واندفع عبره جندى متين البنيان ، دقّ قدمه فى الأرض فى قوة ، وهو يضع رمحه بمحاذاة جسده ، هاتفًا :

ـ التحية لـ (فرناندو) العظيم .

ومدّ يده برق ورق إلى (فرناندو) ، الذى اختطف الرقّ فى لهفة ، وقال للجندى فى خشونة :

ـ هيا .. انصرف .

انصرف الجندى فى سرعة ، وأسرع (فرناندو) بالرقّ إلى نافذة جناحه ، وراح يطالعه فى لهفة ، ثم لم تلبث عيناه أن برقتا فى ظفر وارتياح ، فاقتربت منه (إيزابيلا) ، تسأله :

ـــ ما الذى تحمله هذه الرسالة ؟

أبعد (فرناندو) الرسالة عن عينيها ، ودسّها فى ثنايا ردائه الملكى ، وهو يقول :

ـــ إنها رسالة من (هاكل) .

قالت فى غضب :

ـــ ولماذا تخفيها عنى ؟

أجابها فى خشونة :

ـــ إنه أمر يخصنى وهو ، ولا شأن لك به .

صاحت فى حدة :

ـــ لا شأن لى به ؟! .. ماذا تظن نفسك يا (فرناندو) ؟ .. إننا نخوض هذه الحرب معًا ، ولست تخوضها وحدك ، ومن حقى الاطلاع على أى أمر يخص حربنا .

أشاح بوجهه ، قائلًا فى غلظة :

ـــ ومن قال إن لرسالة (هاكل) أى شأن بالحرب ؟

تراجعت هاتفة :

ـــ عجبًا !! .. أتظن نفسك ذكيًا يا (فرناندو) ؟ .. ألم يبلغك ما يتهامسون به ، فى كل ركن من أركان قصرك ؟

هزّ كتفيه ، قائلًا فى برود :

ـــ لا يعنينى مايتهامسون به .

تابعت فى غضب ، وكأنها لم تسمع عبارته :

ـــ يقولون إنك قد كلّفت صائغك الخاص صنع تحفة من الذهب ، وأرسلت بها (هاكل) ، إلى أحد أمراء العرب ، لإغرائه بالانضمام إليك ، فى حربك المرتقبة .

عقد حاجبيه فى غضب ، وهو يقول :

ـــ يبدو أن لسان هذا الصائغ يحتاج إلى بعض الاختصار .

قالت فى حدة :

ـــ الصائغ لم يفه بحرف واحد ، ولكن القصر مجتمع محدود ، تنتقل فيه الأخبار بأسرع مما تتصوَّر .

ران عليهما الصمت لحظة ، خُيّل لـ (إيزابيلا) خلالها أن (فرناندو) سيفصح لها عمّا لديه ، إلا أنها فوجئت به يصرخ فجأة :

ـــ أيها الحارس .

لم يكد ينتهى من عبارته ، حتى فتح حارسه الخاص الباب فى عنف ، ووقف ثابتًا متحفزًا ، ينتظر أوامر سيّده ، الذى قال فى صرامة :

ـــ اصحب جلالة الملكة إلى حجرتها .

اتسعت عينا (إيزابيلا) ، فى دهشة واستنكار ، واحتقن وجهها فى غضب شديد ، إلا أنها لم تشأ إظهار حرج موقفها

أمام الحارس ، فقالت فى اعتداد :

ــ شكرًا لمبادرتك الرقيقة يا عزيزى (فرناندو) ، ولكننى أستطيع بلوغ حجرتى وحدى ، على الرغم من الدوار الذى أشعر به .

ورفعت رأسها فى كبرياء ، وهى تندفع مغادرة جناحه ، فقال الحارس :

ــ هل أتبعها يا مولاى ؟

لوَّح (فرناندو) بكفه ، علامة على النفى ، فانصرف الحارس ، وأغلق الباب خلفه وهنا صبَّ (فرناندو) لنفسه كأسًا أخرى وهو يقول :

ــ فلتذهب تلك المتغطرسة إلى الجحيم .

وارتشف رشفة من الكأس ، وهو يتطلّع إلى الأفق فى شرود ، مستطردًا :

ــ المهم أن ينجح (هاكل) فى مهمته ، وليفتح لنا أبواب (غرناطة) على مصراعيها ..

وجرع باقى الكأس دفعة واحدة كعادته ..

* * *

« إنهم دستة من القشتاليين .. »

تمتم (فارس) بهذه العبارة ، وهو يختفى مع (مهاب) خلف بعض الأشجار الصغيرة ، يراقبان قافلة (هاكل) ، التى اقتربت كثيرًا من قصر الأمير (عبيدة) ، وقال (مهاب) ، وهو يفحص القافلة بنظرة خبير :

ــ إنهم ليسوا مجرَّد دستة من الحرَّاس فحسب .. لاحظ أن كلًا منهم يرتدى درعه كاملًا ، ويحمل مجنًا من الفولاذ الدمشقى ، ازدان بشعار ملكى خاص .

سأله (فارس) فى اهتمام :

ــ وما الذى يعنيه هذا ؟

أجابه (مهاب) ، وهو لا يزال يفحص الجنود ببصره :

ــ يعنى أنهم من فرسان الحرس الملكى الخاص ، أقوى فرسان (قرطبة) ، وأشدهم قوة وبأسًا ، وهم من أشجع فرسان (قشتالة) و (ليون) .

واعتدل على جواده ، مستطردًا :

ــ ويعنى أيضًا أن هزيمتهم لن تكون أبدًا باليسيرة .

عقد (فارس) حاجبيه ، وهو يقول فى حزم :

ــ هذا لو حاولنا هزيمتهم بالقوة .

ابتسم (مهاب) ، وقال :

ــ من الواضح أن تعاليم الشيخ قد أثمرت .

هتف به (فارس) مستنكرًا :

ـ وهل كان لديك شك فى هذا ؟

أجابه (مهاب) مبتسمًا :

ـ مطلقًا .

ثم مال نحوه، يسأله :

ـ وما الذى تقترحه بالضبط ؟

تنحنح (فارس) فى حرج ، وقال :

ـ أنت مدرِّبى .

لوَّح (مهاب) بيده ، قائلًا :

ـ دعك من هذا .. إننى أحب سماع خطتك .

صمت (فارس) لحظة مفكرًا ، ثم قال :

ـ فليكن .. استمع إلىَّ ..

وروى خطته ..

* * *

أوقف (هاكل) جواده ، الذى يتوسَّط قافلة القشتاليين ، وأخرج منديلًا من الحرير الأحمر ، جفَّف به عرقه ، ثم التفت إلى قائد كتيبة الفرسان ، التى تصاحبه ، وسأله :

ـ كم تبقى أمامنا ، لنبلغ قصر ذلك العربى يا (فرانشيسكو) ؟

أجابه قائد الفرسان :

ـ مسيرة ساعة فحسب يا صاحب الفخامة .

التفت (هاكل) إلى جواد قوى يسير خلفه ، وفوقه صندوق مغطًّى بغطاء من الحرير الأزرق ، وقال :

ـ إننى أتعجَّل القصر ؛ فحملنا ثمين .

ضرب قائد الفرسان بقبضته على درع صدره ، وهو يقول فى حزم :

ـ لا تخشَ شيئًا يا صاحب الفخامة .. إننا سنحمى حملنا بسيوفنا .

ابتسم (هاكل) ، وقال :

ـ لست أظننا سنحتاج إلى هذا كثيرًا يا (فرانشيسكو) ، فهؤلاء العرب يتمسَّكون عادة بتقاليد بالية سخيفة ، ومادمنا قد طلبنا حماية الأمير (عبيدة) هذا ، فهو سيسبغ علينا حمايته ، دون حتى أن يدرى هدفنا من زيارته .

وقهقه ضاحكًا ، وهو يستطرد :

ـ الشهامة والمروءة والكرم .. يالها من صفات غبية ، يتشبَّث بها هؤلاء العرب .

ارتفع فجأة صوت غاضب ، يقول :

ـ نسيت الكرامة والنخوة أيها الحقير .

التفت الجميع فى سرعة إلى مصدر الصوت ، وكاد بعض الحراس يستلّ سيفه ، لولا أن وجدوا أمامهم رجلًا واحدًا ، أشيب الفودين ، يرتدى زيًّا أندلسيًّا عاديًّا ، ويتمنطق بنطاق من الجلد ، يتدلّى منه سيف فولاذى ضخم ..

وكان هذا الرجل هو (مهاب) ..

وكانت ملامحه تحمل صرامة وحزمًا لا مثيل لهما ..

وفى خشونة وغلظة ، قال (فرانشيسكو) لـ (مهاب) :

ـ ابتعد يا رجل .. إننا تحت حماية الأمير (عبيدة) .

قال (مهاب) فى صرامة :

ـ لم أسمع به قط .

استلّ (فرانشيسكو) سيفه ، واتجه بجواده نحو (مهاب) ، وهو يقول فى غضب :

ـ فليكن .. هل سمعت بهذا ؟

ظلّ (مهاب) ساكنًا ، صامتًا فوق جواده ، يرمق (فرانشيسكو) بنظرة باردة صارمة متحدية ، حتى اقترب منه هذا الأخير ، وهو يقول فى سخرية :

ـ يبدو أنك تستحق درسًا قاسيًا ، و ...

وفجأة ، ودون سابق إنذار ، استلّ (مهاب) سيفه

بدوره ، وهوى به ..

وكفارس من فرسان الحرس الملكى ، انتبه (فرانشيسكو) إلى مبادرة (مهاب) فى الوقت المناسب ، فرفع مجنّه (ترسه) ، ليتلقى عليه ضربة سيف (مهاب) ..

ولكن سيف (مهاب) خدع (فرانشيسكو) ..

بل خدع كل العيون ، التى شاهدته يخرج من غمده ..

لقد مال السيف مع جسد (مهاب) ، وتجاوز درع (فرانشيسكو) ومجنّه ، وانخفض بحركة مباغتة سريعة ، ليضرب حزام سرج جواد (فرانشيسكو) ، ويقطعه فى مهارة منقطعة النظير ، دون أن يمسّ بطن الجواد بخدش واحد ..

ومع انقطاع ذلك الحزام ، الذى يربط السرج ببطن الجواد ، ويثبته فوقه ، انزلق السرج ، وفقد (فرانشيسكو) توازنه بغتة ، وانزلق مع السرج ليرتطم بالأرض ، ويصرخ فى غضب وألم وحنق :

ـ اللعنة !

ومع سقوطه ، أطلق (مهاب) ضحكة ساخرة عالية ، أشعلت غضب الفرسان الباقين ، وجذب عنان جواده ، وانطلق به مبتعدًا ..

وفى ثورة غضبه ، صرخ (فرانشيسكو) :



انزلق السرج، وفقد (فرانشيسكو) توازنه بغتة، وانزلق مع السرج ليرتطم بالأرض..

— الحقوا به .. اقتلوا ذلك الوغد .

ودون ذرة من التفكير ، واستجابة لهتاف قائدهم ، اندفع الفرسان خلف (مهاب) ، فهبَّ (هاكل) صائحًا :

— مهلًا .. لا تنصرفوا جميعًا .. مهلًا .

صاح به (فرانشيسكو) فى غضب :

— ويحك يا رجل .. لقد أهانهم ذلك العربى الحقير كثيرًا ، بإهانته لقائدهم .

هتف به (هاكل) فى غضب :

— أوخدعهم أيها الغبى ، وجذبهم بعيدًا عن حملنا الثمين ؛ ليتيح لغيره الاستيلاء عليه .

اتسعت عينا (فرانشيسكو) فى ذعر ، وقد أدرك الفخ ، الذى سقط فيه كغِرّ ساذج ، فاندفع محاولًا اللحاق بجنوده ، صارخًا :

— عودوا أيها الأغبياء .. عودوا .

لم يبلغ نداؤه سوى آذان آخر ثلاثة من رجاله ، فأداروا أعنة جيادهم ، استعدادًا للعودة إليه ، فى نفس اللحظة ، التى خرج فيها من بين الأغصان فوقه صوت حازم حاسم ، يقول :

— سبق السيف العزل أيها الغبى .

رفع (فرانشيسكو) عينيه فى سرعة إلى أعلى ، وأطلق شهقة بدهشة ، عندما وقع بصره على الفارس ..

فارس (الأندلس) .

* * *

٤ — القـوة ..

هبّت (غالا) الجميلة واقفة ، فى حجـرتها الصغيرة ، وهتفت فى صوت يجمع ما بين الدهشة والتساؤل والمفاجأة :

— مولاتى (إيزابيلا) .. مرحبًا بك فى حجرة وصيفتك المتواضعة ، التى ..

أشارت إليها (إيزابيلا) ، وهى تقاطعها فى توتر :

— لا داعى يا (غالا) .. لا داعى ..

ظلّت (غالا) واقفة فى حيرة ، تتساءل فى أعماقها عن سر زيارة الملكة لحجرتها ، وهى التى لم تفعل هذا أبدًا ، فى حين اتخذت الملكة مجلسها ، على طرف سرير (غالا) ، وأشارت إلى تلك الأخيره ، قائلة :

— اجلسى يا (غالا) .. أريد التحدّث معك قليلًا .

جلست (غالا) على ركبتها ، عند قدمى الملكة ، التى تطلّعت إليها فى شىء من الغيرة والحسد ، لم تنجح هذه المرة فى اخفائها كعادتها ..

كانت (إيزابيلا) جميلة بالتأكيد ، ولكن جمالها هذا كان يبدو أشبه بصورة باهتة شاحبة ، أمام فتنة (غالا) الطاغية ، وجمالها الساحر ، الذى ألهب قلوب الجميع ، وعلى رأسهم

(فرناندو) نفسه ..

ولكن الهيبة الملكية كانت تقتضى من (إيزابيلا) دائمًا تجاهل هذا ، والتظاهر بعدم معرفته ..

بل استغلاله فى بعض الأحيان ..

ولقد لاذت (إيزابيلا) بالصمت بعض الوقت ، حتى بلغ قلق (غالا) مبلغه ، ثم قالت فى هدوء :

— هل تلتقين بـ (فرناندو) هذه الأيام ؟

تضرّج وجه (غالا) بحمرة الخجل ، وهى تقـول فى ارتباك :

— ومن ذا الذى يجرؤ على مخالفة أوامر الملك يا مولاتى ؟

أومأت (إيزابيلا) برأسها فى مرارة ، وغمغمت :

— نعم .. من ذا الذى يجرؤ ؟

ثم رفعت أنفها فى شموخ ، وتلاشت المرارة من صوتها ، وهى تقول :

— حسنًا يا (غالا) .. سيفيدنى اقترابك منه ، فى هذه الأيام .

أدركت (غالا) بذكائها ماترمى إليه الملكة ، فمـالت نحوها فى بطء ، وسألتها فى خبث :

— ما الذى تريد مولاتى معرفته ؟

سألتها الملكة فى اهتمام بالغ :

ــ أريد منك أن تعرفى منه سر ذلك الشىء ، الذى طلب من صائغه صنعه ، والسبب الذى أرسل من أجله (هاكل) إلى أرض العرب .

ارتسمت على شفتى (غالا) ابتسامة واسعة ، وهى تتراجع قائلة فى دهاء :

ــ وهل تحتاج أجوبة مثل هذه الأسئلة ، إلى الاقتراب من مولاى الملك يا مولاتى ؟

اعتدلت (إيزابيلا) فى اهتمام ، وهى تقول :

ــ ماذا تعنين ؟

لوّحت (غالا) بكفها ، قائلة :

ــ جدران هذا القصر لاتخفى أية أسرار يا مولاتى .

هتفت (إيزابيلا) :

ــ إذن فأنت تعلمين كل شىء .

انحنت أمامها(غالا) ، وهى تقول فى مكر :

ــ وتحت أمر مولاتى الملكة .

أمسكت (إيزابيلا) كتفى وصيفتها الأولى ، وهى تقول فى لهفة وفضول :

ــ هيا يا (غالا) .. هيا .. أبلغينى مالديك .

ازدادت انحناءة (غالا) ، وهى تقول :

ــ سمعًا وطاعة يا مولاتى .

وألقت على مسامع الملكة ما لديها ..

* * *

انطلق (مهاب) على جواده فى مهارة ، وخلفه ثمانية من أقوى فرسان الحرس الملكى ، يسعون للإمساك به ، ومعاقبته على إهانة قائدهم ، ولكن هذا لم يفتّ فى عضد (مهاب) ، الذى انطلق ملوّحًا بسيفه ، وهو يهتف :

ــ هيا أيها الأوغاد .. زيدوا من سرعتكم .. هيا .

انحنى ، وهو يعبر أسفل غصن قوى ، ثم مال جانبًا ، ورفع سيفه ، ليهوى به على حبل فى جدائل الأغصان ، يجذب هذا الغصن القوى ، وهو يقول :

ــ هيا .. انطلق .

لم يكد حبل جدائل الأغصان ينقطع ، حتى أفلت الغصن القوى من عقاله ، وانطلق كسوط ضخم فى وجوه الفرسان الثمانية ، وارتطم بوجوههم كجلمود صخر ، أطلقه منجنيق قوى(*) ، فانتزع ثلاثة منهم من فوق جيادهم ، وألقاهم أرضًا

(*) المنجنيق : آلة حربية قديمة ، تعتمد على جذب مقلاع ضخم ، بوساطة حبل سميك ، ووضع صخرة ضخمة ، أو كتل مشتعلة ، فى تجويف المقلاع ، وإطلاق الحبل ، بحيث تتحوّل الصخرة ، أو الكتلة المشتعلة إلى ما يشبه قنبلة جوية عنيفة .

فى عنف ، وأصاب وجه الرابع إصابة عنيفة ، فصرخ فى غضب :

ـ لن تفلت أيها العربى .

لم تكن فى جعبة (مهاب) ، أية وسائل خداعية أخرى ، فواصل انطلاقه بجواده ، وهو يقول لنفسه :

ـ أتعشّم أن تكون قد انتهيت من مهمتك الآن يا (فارس) .

كان يحمد فى فراره على سرعة جواده ومهارته ، فراح يلكزه بكعبيه ، وهو يهتف به :

ـ هيا يا صديقى .. انطلق بأقصى سرعة .. إنك أملى الوحيد .

ولكن فجأة بدت أمامه تلك الفجوة العميقة ..

كانت فجوة واسعة ، يعجز جواده عن عبورها ، وعميقة ، سيلقى حتفه حتمًا ، لو سقط داخلها ..

ولم يكن هناك مفرّ من التوقف ..

ومن المواجهة ..

وبكل ما يملك من قوة ، جذب (مهاب) عنان جواده ، الذى توقّف على قيد ذراع واحد من الهوة ، ثم استدار استجابة لفارسه ، وتوقّف يواجه الفرسان الخمسة ، الذين استلّوا

سيوفهم ، وأطلقوا صيحات الظفر ، وهم ينقضون على (مهاب) ..

ولكن (مهاب) انتظر حتى اللحظة الأخيرة ، ثم جذب عنان جواده جانبًا ، هو ينحنى متفاديًا سيوف خصومه ، ويهتف بجواده :

ـ الآن يا صديقى ..

انطلق به الجواد جانبًا ، بمحاذاة حافة الهوة ، فى حين فوجىء القشتاليون بوجودها ، فجذبوا أعنة جيادهم ، ولكن الجياد تخبطت ببعضها البعض ، وتدافعت دون وعى ، فدفعت أمامها أقرب جوادين إلى حافة الهوة ..

وسقط الجوادان بفارسيهما فى الهوة ..

وامتزج صهيل الجوادين بصرخة الفارسين ، مع هتاف الفرسان الثلاثة الباقين :

ـ اللعنة !

ثم أدار الثلاثة أعنة جيادهم ، وانطلقوا مرة أخرى يطاردون (مهاب) ، وقد ولد الغضب والرغبة فى الثأر ، بركانًا من القوة والحماس فى عروقهم ونفوسهم ، فى حين اتخذ (مهاب) بجواده طريق العودة ، إلى حيث القافلة ، وهو يقول لجواده :

ـــ حاول أن تسبقهم يا صديقى ، فربما كان (فارس) فى حاجة إلى معاونة .

ولكن يبدو أن غضب القشتاليين قد انتقل إلى جيادهم ، التى نهبت الأرض نهبًا ، وزادت من سرعة عدوها ، حتى تناقصت المسافة بينها وبين جواد (مهاب) فى سرعة ، ولحقت به عند بداية طريق الأشجار ، الذى يقود مرة أخرى إلى حيث القافلة ..

وفجأة ، وجد (مهاب) نفسه محاطًا بالفرسان الثلاثة ..

وارتفعت السيوف الثلاثة فى وجهه ..

ولم يعد هناك مفرّ من القتال ..

والتقت السيوف ..

وشعر (مهاب) بقلق حقيقى هذه المرة ..

كان من الواضح أن خصومة الثلاثة من أقوى الرجال ، وأمهر الفرسان ، الذين قاتلهم فى حياته كلها ..

صحيح أنه أيضًا فارس ومبارز لايستهان به ، وأنه كان ، ومايزال ، واحدًا من أقوى وأبرع فرسان العرب ، ولكن مواجهه ثلاثة من أقوى الرجال فى آن واحد ، أمر يعجز عنه حتى أشدّ الفرسان ..

ومع هجومهم الغاضب الشرس عليه ، ارتفعت السيوف

فوق عنقه ..

وهوت ..

وضاع من قلبه كل أمل فى النجاة ..

* * *

مضت لحظة قصيرة للغاية ، و (فرانشيسكو) يحدّق فى وجه (فارس) وزيه الأبيض ، وحرملته ونطاقه الخضراوين ، وهو يجلس بين أغصان الشجرة الضخمة فوق رأسه ..

ثم قطع (فارس) هذا الموقف بصفير متصل طويل ، أطلقهَ من بين شفتيه ، دون أن يبالى بالفرسان الثلاثة ، الذين يندفعون لمؤازرة قائدهم ..

ولم يفهم الجميع فى البداية ، ما الذى يعنيه هذا الصفير ..

ثم ارتفع صهيل جواد ، من الناحية المقبلة ..

وبرز (رفيق) ..

برز الجواد العربى الأبيض الأصيل ، من بين الأشجار ، دون سرج أو لجام ، وهو يعدو نحو (هاكل) ، الذى يفصله عن الشجرة الضخمة ، التى يعتليها فارسه ..

وأطلق (هاكل) ، شهقة ذعر ، وانحنى فوق جواده فى خوف ، عندما وثب الجواد وثبة رائعة ، عبر بها اليهودى وجواده ، ثم اندفع نحو الشجرة ، فقفز (فرانشيسكو)

جانبًا ، متفاديًا الجواد القوى ، فى حين تسمر الفرسان الثلاثة الآخرون ، وهم يحدقون فى ذلك المشهد فى ذهول ..

وأمام كل العيون الذاهلة ، وثب (فارس) من فوق الشجرة ، وانعكس الضوء عن خوذته الفضية ، ليغشى أعين الفرسان الثلاثة ، قبل أن يستقرّ فوق متن جواده ، ويجذب معرفته ، هاتفًا :

— الآن يا (رفيق) .

ودون أن يضيع الجواد لحظة واحدة ، انطلق كالريح نحو الجواد ، الذى يجذبه (هاكل) خلفه ، والذى يحمل الصندوق المغطى بالحرير الأزرق ..

وصرخ (هاكل) ، وهو يلوّح فى ذعر :

— لا .. لا .. ابتعد .

وهنا انتبه (فرانشيسكو) ، فصرخ بدوره ، مخاطبًا رجاله :

— امنعوه .. أسرعوا .

انطلق الفرسان الثلاثة نحو (فارس) ، ولكن هذا الأخير كان قد بلغ الجواد المنشود ، فاستلّ سيفه ، وقطع أربطة الصندوق بضربتين سريعتين رائعتين ، ثم التقط الصندوق ، ذا الغطاء الحريرى الأزرق ، وانطلق يعدو مبتعدًا ، و (هاكل) يصرخ :

— لقد سرق السيف .. السيف الذهبى .

انطلق الفرسان الثلاثة يطاردون (فارس) فى إصرار ؛ لاستعادة السيف الثمين ، ولكن جواد (فارس) كان ينطلق بسرعة مدهشة ، ويناور ويراوغ فى مهارة منقطعة النظير ، أدرك معها الفرسان الثلاثة أن لحاقهم به يعد مستحيلًا فصاح أحدهم فى غضب :

— أمطروه بسهامكم .

سحب كل منهم قوسه ونشابه ، وصوبوا سهامهم إلى ظهر (فارس) ..

وأطلقوها ..

وانحنى (فارس) ، متفاديًا ذلك المطر القاتل ، المنهمر عليه ، وهو يحثّ جواده على الإسراع ، قائلًا :

— انطلق أسرع يا (رفيق) .. إننا نواجه ثلاثة من الأوغاد ، لايتورّعون عن إطلاق سهامهم على ظهر الخصم .

لم يكد ينطق القول ، حتى انتابه الحنق لهذا ، فأضاف فى غضب :

— وعلى الرغم من هذا ، فنحن نفر أمامهم كالجبناء .

التهب حماسه ونخوته للفكرة ، ورأى موجة أخرى من السهام تعبر من فوق رأسه ، فهتف بكل فورة الشباب فى أعماقه :

— لا يا (رفيق) لن نهرب هكذا .



لم يكن أحدهم قد واجه فى حياته خصماً كهذا، لا يرتدى درعاً، ولا يحمل مجنًا، ولا يستخدم لجواده سرجاً أو لجاماً..

وبجذبة حاسمة لمعرفة جواده ، استجاب الجواد على الفور ، وتوقف ، ثم استدار يواجه الفرسان الثلاثة ..

وبحركة غريزية ، امتزجت بتأثير المفاجأة ، أوقف الفرسان الثلاثة جيادهم أيضًا ..

ومضت لحظات طويلة من الصمت والسكون ..

والتقت النظرات فى تحدّ وحزم وصرامة ..

وفى أعماقهم ، شعر الفرسان الثلاثة بالقلق والدهشة فى آن واحد ..

القلق لذلك الإجراء الانتحارى ، الذى قام به (فارس) ، وكأنه يتحدى ثلاثتهم فى حزم ..

والدهشة لذلك الزى الذى يرتديه ، وذلك الجواد الذى يمتطيه ..

لم يكن أحدهم قد واجه فى حياته خصمًا كهذا ، لا يرتدى درعًا ، ولا يحمل مجنًا ، ولا يستخدم لجواده سرجًا أو لجامًا ..

كانت كل علامة منفردة ، من هذه العلامات ، تعنى أن صاحبها فارس عظيم ، ومقاتل مغوار ، لا يشق له غبار ..

فماذا لو اجتمعت كلها فى فارس واحد ؟ ..

ولكنه يتحداهم ، ويواجههم بكل ثقة وصرامة ..

وهذا يطرح كل الأمور الأخرى جانبًا ..

وفى حزم ، ألقى الثلاثة أقواسهم ، واستلوا سيوفهم ، و ..

وبدأ القتال دفعة واحدة ..

وبكل شراسة .

* * *

٥ ـ السيف والقلم ..

كان من المستحيل ، على الرغم من دقة الموقف وصعوبته ، أن يستسلم قائد الفرسان السابق (مهاب) ، أمام أعدائه ، مهما صغر الأمل فى فوزه عليهم ، ومهما تضاءلت فرصته فى الفوز ..

لذا فقد استقبل (مهاب) السيوف الثلاثة على نصل سيفه فى آن واحد ، وصدّها بكل ما يملك من قوة ، وشعر بساعده يكاد ينهار تحت وطأتها ، فتراجع فى حركة سريعة ، وأفلت سيفه من السيوف الثلاثة ..

وأطلق الفرسان القشتاليون صيحة غضب ، وانقضوا عليه مرة أخرى ..

وفى هذه المرة ، كانت انقضاضتهم قوية مدروسة ، فلقد هاجمه أحدهم مباشرة ، والتفّ الثانى من خلفه ، فى حين قطع الثالث حزام سرجه ، كما فعل هو سابقًا مع قائده (فرانشيسكو) ، وهو يقول فى تشفّ :

ـ هذه هى البداية .

حاول (مهاب) أن يتشبّث بجواده ، على الرغم من انقطاع حزام سرجه ، وجرح بطن جواده ، ولكن ضربة سيف

القشتالى الأوّل أفقدته توازنه ، وأجبرته على السقوط أرضًا ..

وانقضّ الفرسان الثلاثة على خصمهم للمرة الثالثة ، وأطلقوا صرخة شامتة واعدة ، و ..

وفجأة ارتجّ الطريق الصخرى بتلك الصرخة الهائلة المخيفة ..

صرخة ، أرجفت حتى قلوب فرسان الملك الثلاثة ، على الرغم من أنها قد أثلجت قلب (مهاب) ، الذى هتف :

ـ حمدًا لله .. إنه هو .

وفى نفس اللحظة ، التفت القشتاليون الثلاثة إلى مصدر الصرخة ..

وفى اللحظة التالية ظهر أمامهم (فهد) ..

برز ذلك الزنجى الأسود بغتة ، على صهوة جواده الأدهم القوى ، كما لو كانت الأرض قد انشقّت وأنجبته ، دون سابق إنذار ..

ومع صرخته الثانية ، التى زلزلت القلوب ، هوى سيفه الضخم القوى ..

ورفع أحد القشتاليين الثلاثة سيفه ، فى محاولة لصدّ سيف (فهد) ، ولكن سيف هذا الأخير هوى على سيفه كالصاعقة ، فاقتلعه من يده ، وأطاح به بعيدًا ، ثم أدار (فهد) صفحة

سيفه ، وهوى بها على صدغ الفارس ، فاقتلعه من فوق جواده ، وألقى به أرضًا ، ثم التفت إلى الفارسين الآخرين ..

ومن المؤكد أنها كانت تجربة مخيفة رهيبة ، بالنسبة للفرسان الثلاثة ، فعلى الرغم من ثقتهم الشديدة ، فى أنهم أقوى وأشجع فرسان (قشتالة) ، فقد جرّدهم (فهد) من سيوفهم فى لحظات ، وألقى بهم من فوق جيادهم ، دون أن يصيبهم بخدش واحد ..

وانطلقت الجياد تعدو مبتعدة ، وكأنما أصابها الرعب ، فى حين شعر القشتاليون الثلاثة بتوتر بالغ ، وهم يواجهون (فهد) وسيفه القوى ، دون سلاح ، وتصوّروا فى لحظة أن (فهد) سيقتلهم دون رحمة ، وخاصة مع تلك النظرة المخيفة ، المطلّة من عينيه ، إلا أن (مهاب) صاح بهم فى صرامة :

ــ هيا .. ابتعدوا .

لم يصدّقوا آذانهم ، فانطلقوا مبتعدين ، قبل أن يعود عن قراره ، وخفض (فهد) سيفه ، وهو يراقب ابتعادهم فى صرامة ، فى حين ابتسم (مهاب) فى ارتياح ، وهو يقول له :

ــ كنت أعلم أنك ستظهر فى الوقت المناسب يا رجل .

التفت إليه (فهد) فى صمت ، فأضاف (مهاب) :

ــ ولكننى تصوّرت أنك ستقتلهم بلا تردّد .

التقى حاجبا (فهد) ، وفتح فمه المغلق دائمًا ، ليقول فى اقتضاب ، وبصوت عميق ، يبدو وكأنه يأتى من أعماق سحيقة :

ــ كانوا على أرضنا .

هتف (مهاب) :

ــ على أرضنا ؟!

ثم انفجر ضاحكًا ، وهو يربُت على كتف (فهد) القوى ، مستطردًا :

ــ يا لشهامتك الطبيعية يا رجل .. إنك بالفعل عربى ، من قمة رأسك حتى أخمص قدميك .

لم يبد على (فهد) أدنى قدر من الاهتمام ، بعبارة المدح ، التى ألقاها (مهاب) على مسامعه ، بل تطلّع إليه بنظرة صارمة ، وهو يسأله بكلمة شديدة الاقتضاب :

ــ أين (فارس) ؟

ضرب (مهاب) جبهته براحته ، وهو يهتف :

ــ (فارس) ؟! .. يا إلهى ! ..

ثم أمسك كتف (فهد) ، مستطردًا فى انفعال :

ــ أسرع بنا يا رجل ، فمن المؤكّد أن (فارس) يواجه الخطر وحده .. أسرع بنا بالله عليك .

* * *

عندما بدأ القتال ، بين (فارس) وخصومه الثلاثة ، كان هؤلاء يتوقعون هجومًا تقليديًا ، كذلك الذى تدرّبـوا على مواجهته طويلًا ..

ولكن (فارس) لم يمنحهم هذا ..

لقد تلقى تدريباته على يد قائد الفرسان (مهاب) ، وتتلمذ على يد أحكم حكماء (الأندلس) ..

وهذا المزيج لايستهان به ..

وعندما انقضّ على خصومه الثلاثة ، كان يعلـم أنهم سيستعدون لمواجهته على نمط تقليدى ، وأن عليه أن يفاجئهم بنمط غير مألوف ، حتى يمنح نفسه نقطة تفوّق عليهم ، تقلّل من امتيازهم العددى ..

وهكذا فعل ..

لقد انطلق بجواده نحو فارس المنتصف مباشرة ، وكأنـه سيلتحم معه بسيفه ، ثم جذب معرفة جواده فى اللحظـة الأخيرة ، نحو فارس الميمنة ، هاتفًا :

ـــ الآن يا (رفيق) .

وجاءت استجابة (رفيق) سريعة قوية كالمعتاد ، ووثب وثبة رائعة مذهلة ، وهو يُطلق صهيلًا قويًا ، وبدا فى وثبته وكأنه سيضرب صدر فارس الميمنة بحوافره ، مما جعل ذلك

الفارس ينحنى متفاديًا الوثبة ، فعبر (رفيق) بفارسه فوقه ، فى نفس اللحظة التى أدار فيها (فارس) سيفه إلى اليسار ، وهوى به على سيف فارس المنتصف ، وهو يقبض على الصندوق ذى الغطاء الأزرق بعضده فى قوة ..

وهبط (رفيق) خلف الفرسان الثلاثة ، الذين أصابهم الارتباك ، ثم استدار مرة أخرى ، استجابة لفارسه ، الذى لوّح بسيفه ، وهوى به على خوذة أحد الفرسان الثلاثة ، ثم دفعه فى وجه الثانى دفعة مباغتة ، أفقدت الفارسين توازنهما فى لحظة واحدة ، فسقطا عن جواديهما ، وهما يطلقـان سبابًـا ساخطًا غاضبًا ، جعل الفارس الثالث يهتف :

ـــ ويلك أيها العربى .

ولكن (فارس) استقبل سيف القشتالى على حافة سيفه ، ودفعه بعيدًا ، ثم هوى بدوره على القشتالى ، الذى صد الضربة بترسه ، هاتفًا :

ـــ لن تنجح أيها العربى ، دون درع أو مجنّ .

رفع (فارس) سيفه ، وأداره فى الهواء بسرعة مدهشة ، ثم هوى به على الجانب الأيسر من الفارس ، قائلًا :

ـــ أتظن هذا أيها القشتالى .

أمال القشتالى ترسه إلى اليسار ، ليصد سيف (فارس) ،

إلا أن هذا الأخير راوغه بغتة ، وأمال سيفه إلى اليمين ، وضرب سيف القشتالى ضربة فنية ، أطاحت به فى مهارة ، فتراجع الفارس الملكى فى دهشة ، و (فارس) يقول :

ــ ما رأيك يا رجل ؟

لم ينبس القشتالى ببنت شفة ، فى حين جذب (فارس) معرفة جواده ، وانطلق به مبتعدًا فى سرعة ، وهو يحمل الصندوق ، وهبّ الفارسان الساقطان إلى زميلهما ، وهما يهتفان :

ــ فلنلحق به .

ضمّ القشتالى قبضته على عنان جواده فى غضب ، وهو يقول :

ــ لن نلحق به .

قفز أحدهما على متن جواده ، وهو يقول فى غضب :

ــ فلنحاول .

صاح به زميله :

ــ لن نلحق به أبدًا .

توقّف الفرسان الثلاثة لحظة ، توتّر خلالها المناخ بينهما فى شدة ، وكادوا يشتبكون فى مشادة عنيفة ، لولا أن غاب (فارس) عن أبصارهم ، وحسم خلافهم ، ولم يعد أمامهم

سوى العودة إلى حيث يقف قائدهم (فرانشسكو) ، وهم يجرّون أذيال الخيبة ..

لقد هزمهم فارس عربى واحد ..

فارس من طراز خاص ..

* * *

تفجّر الغضب فى وجه (هاكل) وصوته ، وهو يصرخ فى وجوه الفرسان :

ــ ثلاثة من العرب فحسب .. ثلاثة هزموكم ، يا أقوى وأشجع فرسان قشتالة .. كيف تتوقعون أن نهزم العرب يومًا إذن ؟

عقد (فرانشسكو) حاجبيه فى ضيق ، وهو يقول :

ــ لقد باغتونا يا صاحب الفخامة ، ولم ..

قاطعه (هاكل) صائحًا :

ــ بل خدعوكم ياقائد الفرسان .. خدعوكم كما لو كنتم ثلة من الحمقى ، ونجحوا فى الحصول على الصندوق ، الذى يفترض أن تبذلوا أرواحكم ، فى سبيل الحفاظ عليه .

قال (فرانشسكو) فى حنق :

ــ لقد بذلنا أقصى جهدنا ، وفقدنا رجلين ، و ..

صرخ (هاكل) ، يقاطعه للمرة الثانية :

ـ وهذا أسوأ ما فى الأمر .. أنكم قد بذلتم أقصى جهدكم ، فهو يعنى أنكم ، يا أعظم فرسان البلاط ، لاتساوون شيئًا أمام فرسان العرب .

اندفع أحد الفرسان يقول :

ـ من المستحيل أن يكون كل فرسان العرب هكذا ، وإلا لما نجحنا فى استعادة (قرطبة) منهم من قبل .. إنك لم تر هؤلاء الشياطين الثلاثة ، الذين قاتلناهم .. لقد كان أحدهم أشبه بشيطان أسود ، والآخر يقاتل كالوحوش ، أما ذلك الثالث ، ذو الرداء الأبيض ، فهو ..

قاطعه (هاكل) :

ـ كل هذا لايعنينى .. المهم أنهم أخذوا الصندوق .

وبدت لهم لهجته مخيفة ، وهو يستطرد :

ـ ولن يروق هذا لمولانا (فرناندو) أبدًا .

تبادل الفرسان العشرة نظرات القلق والتوتر ، وغمغم قائدهم (فرانشسكو) :

ـ كان المفروض أننا فى حماية الأمير (عبيدة) ، ولم نتوقَّع هجومًا مباغتًا كهذا .

قال (هاكل) فى انفعال :

ـ هذا صحيح ، ومن الضرورى أن نستغلَّ هذا جيِّدًا .

سأله (فرانشسكو) فى دهشة :

ـ كيف ؟

تجاهل (هاكل) سؤال قائد الفرسان ، وقال فى صرامة :

ـ أعطنى واحدة من حمامنا الزاجل .

أشار (فرانشسكو) إلى أحد رجاله ، فاتجه إلى جواد يحمل قفصًا كبيرًا ، يمتلىء بالحمام الزاجل الأبيض الجميل ، فالتقط منه واحدة ، وناولها إلى (هاكل) ، الذى ناولها بدوره إلى قائد الفرسان ، قائلًا :

ـ أمسك هذه ، وأعطنى قلمًا ورقعة رسائل .

ناوله أحد الفرسان ريشته ومحبرته ورقعة جلدية مضغوطة ، فغمس (هاكل) ريشته فى محبرته ، وراح يخطّ بضع كلمات على الرقعة الصغيرة ، فسأله (فرانشسكو) :

ـ ما هذه الرسالة ؟

أجابه (هاكل) ، وقد انتهى من الكتابة ، وراح ينفخ الكلمات ؛ ليجفف الحبر :

ـ إنها سلاحنا الجديد .

مطّ (فرانشسكو) شفتيه فى احتقار ، وهو يقول :

ـ سلاح ؟!

طوى (هاكل) الرقعة ، واستعاد الحمامة الزاجلة ، وراح

يربط الرقعة المطوية على ساقها فى عناية ، وهو يقول فى خبث :

ـــ نعم يا قائد الفرسان .. إننى وجلاله الملك قد قررنا إدخال القلم كسلاح جديد فى معركتنا .

وأطلق الحمامة ، التى رفرفت بجناحيها ، وانطلقت عائدة إلى (قرطبة) ، وهو يستطرد :

ـــ ولنر من ينتصر هذه المرة .. السيف أم القلم ؟

وابتسم ابتسامة كبيرة ..

وغامضة ..

* * *

لوَّح (فارس) بيده فى حرارة ، عندما لمح (مهاب) ، وهو ينطلق نحوه ، على متن جواده ، وابتسم فى ارتياح ، عندما بلغه هذا الأخير ، وقال :

ـــ حمدًا لله أنك قد نجوت مثلى يا صديقى .. ماذا أصاب حزام سرجك ؟

أجابه (مهاب) ضاحكًا :

ـــ لقد انتقم أحد الفرسان ، لما أصاب قائده ، فمزَّق حزام سرجى ، ولقد أصلحته قبل عودتى .

سأله (فارس) :

ـــ وهل هزمت الفرسان الثمانية كلهم وحدك ؟

هزَّ (مهاب) رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ لا .. لقد عاوننى (فهد) .

اعتدل عنق (فارس) ، وهتف فى لهفة :

ـــ (فهد) ؟! .. أين هو ؟ .. إننى أتوق لرؤيته .

ربَّت (مهاب) على ذراعه ، وهو يقول مبتسمًا :

ـــ ستراه عندما تحتاج إليه .

أومأ (فارس) برأسه ، وتمتم فى ضيق :

ـــ كالمعتاد .

أشار (مهاب) إلى الصندوق ، المغطَّى بالحرير الأزرق ، وهو يقول :

ـــ هل نجحت فى الحصول على السيف ؟

أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، وقال فى شىء من الزهو :

ـــ نعم .. لقد أنهينا المهمة هذه المرة فى زمن قياسى .

تنهَّد (مهاب) فى ارتياح ، وقال :

ـــ حمدًا لله .

ثم أضاف فى فضول :

ـــ دعنا نلقى عليه نظرة .

قال (فارس) فى حزم :

ـــ لا .. ليس قبل أن نصل إلى الشيخ .

لوّح (مهاب) بكفه ، قائلًا :

ـ هيا يافتى .. لا داعى للعناد .. من الضرورى أن نتأكد من أننا قد حصلنا على ما نبتغى .

صمت (فارس) لحظات مفكرًا ، ثم قال :

ـ نعم .. أنت على حق .

وأزال الغطاء الحريرى الأزرق فى رفق ، ثم فتح الصندوق المستطيل ، وهو يقول :

ـ نظرة واحدة فحسب .

وأطلق (مهاب) شهقة انبهار ، عندما انفتح الصندوق ، ووقع بصره على السيف الذهبى ، ومقبضه المحلّى بالأحجار الكريمة ، وهتف :

ـ ياله من تحفة رائعة !

هزّ (فارس) كتفيه ، وقال :

ـ إنه جميل ، ولكنه لايبهرنى مثلك .

ضحك (مهاب) ، وهو يقول :

ـ لقد نجح الشيخ ، فى أن يحصنك ضد إغراء الذهب .

ثم مدّ يده يمسك السيف ، فأبعده (فارس) عن أصابعه ، قائلًا فى حزم :

ـ قلنا إنها نظرة واحدة فحسب .

ولكن أصابع (مهاب) كانت قد لمست السيف بالفعل ، فأعادها إلى جواره ، وهو يقول :

ـ للأسف .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إلى أصابعه فى دهشة ، قبل أن يهتف :

ـ افتح الصندوق يا (فارس) .. دعنى أختبر ذلك السيف اللعين .

لم يعترض (فارس) هذه المرة ، فقد أدرك من لهفة (مهاب) أن شيئًا ما قد حدث ، فأسرع يفتح الصندوق ، ويدنيه من (مهاب) ، الذى أمسك السيف ، وانتزعه من مكانه ، ثم صاح فى غضب وغيظ :

ـ اللعنة ! .. لقد خدعنا هؤلاء الأوغاد .

سأله (فارس) فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟

ألقى (مهاب) السيف أرضًا فى حنق ، وهو يهتف :

ـ إنه سيف زائف .. زائف .

وكانت مفاجأة مذهلة .

* * *



فقد أدرك من لهفة (مهاب) أن شيئاً ما قد حدث ، فاسرع يفتح الصندوق ..

٦ ــ الخدعة ..

كان الملك (فرناندو) قد انتهى من إدارة شئون البلاط منذ قليل ، وعاد إلى جناحه الخاص ، وخلع عن رأسه تاج الملك ، وتمدد فوق مقعده الوثير ، عندما اقتحمت الملكة (إيزابيلا) المكان فى عنف ، وخلفها الحارس الخاص لـ (فرناندو) ، الذى ارتبك وهو يقول :

ــ عفوًا يا مولاى .. مولاتى الملكة لم تمنحنى وقتا للاستئذان .

اعتدل (فرناندو) فى هدوء ، وهو يشير إلى الحارس ، قائلًا :

ــ لا عليك يا رجل .. مولاتك الملكة صاحبة الحق ، فى دخول أيه حجرة من حجرات القصر ، حتى الجناح الملكى .

تراجع الحارس فى سرعة ، وأغلق الباب خلفه ، فى حين ارتسمت على شفتى (فرناندو) ابتسامة شبه ساخرة ، وهو يقول :

ــ مرحبًا بملكة (قشتالة) و (ليون) ، فى جناح ملك (أرجون) المتواضع .

اندفعت نحوه فى ثورة غاضبة ، وهى تقول :

ـ ما الذى تفعله من وراء ظهرى ؟

هزّ كتفيه فى لا مبالاة ، وقال :

ـ وما الذى يمكننى أن أفعله من وراء ظهرك ، ياملكة الملكات ؟

ضربت مقعده بقبضتها فى غضب ، وهى تقول :

ـ لقد أرسلت (هاكل) إلى أحد أمراء العرب ، حاملًا سيفًا من الذهب ، يساوى ثروة كاملة .

نهض من مقعده فى هدوء ، وهو يقول :

ـ وماذا فى هذا ؟

صرخت :

ـ لماذا أخفيت الأمر عنى ؟

التفت إليها فى برود ، وهو يقول :

ـ لأن النساء لايمكنهن الحفاظ على الأسرار يا عزيزتى .

صاحت فى حنق :

ـ لست مجرَّد امرأة فى بلاطك يا (فرناندو) .. إننى ملكة .. ملكة من أعظم سلالات الملوك .

عقد حاجبيه ، قائلًا فى حدة :

ـ ولكنك امرأة .

صاحت :

ـ وهل حفظ الرجال أسرارك ؟ .. القصر كله يعلم كل تفاصيل خطتك هذه ، ولست أستبعد أن يكون أمير العرب نفسه على علم بها .

هزّ كتفيه ، قائلًا :

ـ وماذا فى هذا ؟ .. دعيه يعلم ما يحلو له .

وصبَّ لنفسه كأسًا من الخمر ، وهو يستطرد :

ـ لقد أرسلت رسولًا إلى الأمير (عبيدة) ، أطلب منه استقبال (هاكل) وطاقم حراسته فى قصره ، وإحاطتهم بحمايته ، منذ عبورهم حدود (الأندلس الصغرى) ، وحتى وصولهم إلى قصره ، ولقد وافق الأمير ، وهو يجهل الغرض من زيارة (هاكل) له ، وهذه الموافقة تعنى الكثير عند العرب ، وسيعتبر (عبيدة) أن هذه القافلة تخصُّه شخصيًّا ، ولن يغفر أى مساس بها .

قالت فى حدة :

ـ لو أن أمير (غرناطة) شعر أن القافلة تمثّل خطرًا عليه ، فسيهاجمها حتمًا ، حتى ولو أغضب هذا الأمير (عبيدة) .

ابتسم فى سخريه ، وقال :

ـ من الواضح أنك تجهلين كل شىء تقريبًا عن العرب .. صحيح أن الأمير (عبيدة) يخضع لأمير (غرناطة) ، إلا أن

هذا الأخير لا يستطيع مهاجمة قافلة ، أسبغ عليها (عبيدة) حمايته ، فسيعدّ هذا إهانة مباشرة لـ (عبيدة) ، وقد يدفعه إلى شن حرب محلّية على أميره ، وفي هذا فائدة لنا .

بدا عليها الضيق ، كما لو كانت تتمنى أن تفشل خطته ، لتثبت له أنه ليس أكثر ذكاءً منها ، وقالت فى توتر :

ـ ليس هذا هو الخطر الوحيد .

لاحظت أنه لا يستمع إليها ، وأنه يتطلّع فى اهتمام إلى حمامة بيضاء ، تتجه صوب برج القصر ، فهتفت به فى غضب :

ـ (فرناندو) .. إننى أتحدّث إليك .

التفت إليها ، وعيناه تبرقان ببريق خاص ، وقال :

ـ نعم يا عزيزتى (إيزابيلا) .. إننى أستمع إليك .

قالت فى حدة :

ـ قلت إن هذا ليس الخطر الوحيد ، الذى يواجه سيفك الذهبى .

قال فى سخرية أحنقتها :

ـ حقًا ؟!

ثم ارتشف رشفة من كأسه ، قبل أن يضيف :

ـ وما الأخطار الأخرى ، التى تواجهه ؟

قالت فى عصبية :

ـ محاولات السطو مثلًا .

رفع حاجبيه ، وهو يقول :

ـ نعم .. هذا محتمل .

أثلج هذا القول صدرها ، فلقد بدا لها أشبه باعتراف فشل ، وهمّت بقول شىء ما ، لولا أن ارتفعت دقّات على باب الجناح الملكى ، فأسرع (فرناندو) إلى الباب ، وهو يقول :

ـ ادخل .

دلف إلى الجناح جندى صغير ، أدّى التحية للملك ، ثم ناوله الرقعه الجلدية المطوية ، التى أرسلها (هاكل) ، ففضّها (فرناندو) فى سرعة ، وهو يشير إلى الجندى بالانصراف ، وقرأها فى لهفة ، قبل أن يرفع عينيه إلى (إيزابيلا) ، ويقول :

ـ لقد كنتِ على حق يا عزيزتى (إيزابيلا) .

خفق قلبها ، وهى تسأله :

ـ ماذا حدث ؟

أجابها فى هدوء :

ـ لقد تعرّضت قافلة (هاكل) لحادث سطو .

هتفت به :

ـ وماذا حدث للسيف الذهبى ؟

أجابها مبتسمًا :

— لقد سرقه اللصوص .

لم تدر أتنفجر باكية ، أم تطلق ضحكة شامتة عالية ، وهى تقول :

— سرقوه .

بادرها فى سرعة :

— هكذا يتصورون .

تجمّدت كل الانفعالات فى أعماقها ، وهى تسأله فى دهشة :

— ماذا تعنى ؟!

أجابها ، وشفتاه تحملان ابتسامة ساخرة عريضة :

— لقد هاجموا القافلة ، وسرقوا الصندوق ، الذى يحوى السيف الذهبى فى تصورهم ، وأتمنى رؤية وجوههم ، عندما يكشفون أن ماسرقوه مجرّد سيف زائف من الفولاذ ، تم طلاؤه بطلاء ذهبى فحسب .

انهارت آمال هزيمته فى أعماقها ، وتمتمت :

— هل كنت تتوقّع هذا ؟

قهقه ضاحكًا فى ظفر ، وهو يقول :

— بل هو (هاكل) الداهية ، الذى وضع هذا الاحتمال فى الاعتبار ، وابتكر فكرة السيف الزائف ، بل والمخبأ المناسب

للسيف الحقيقى .

تمتمت فى مرارة :

— ياله من داهية !

قهقه (فرناندو) مرة أخرى فى ظفر ، وقال :

— ما يدهشنى أكثر ، هو أن ذلك الثعلب (هاكل) قد توقّع مسبقًا طبيعة هؤلاء اللصوص الزائفين ، الذين سيسعون لسرقة السيف الذهبى ، وهذه الرقعة الواردة منه الآن ، تشير إلى أن توقعاته كانت صحيحة .

سألته فى حيرة :

— ومن هؤلاء اللصوص ؟ .. وما الذى تعنيه بأنهم زائفون ؟

مال نحوها ، وهو يقول :

— لقد كانوا ثلاثة رجال يا عزيزتى (إيزابيلا) .. أحدهم أشيب الفودين ، متين البنيان ، والثانى زنجى أسود قوى ، أما الثالث ، فهو شاب صنديد ، يرتدى خوذة فضية ، ورداء أبيض ، وحرملة ونطاقًا خضراوين ، و ..

قاطعته هاتفة :

— أتقصد أنه ..

قاطعها بدوره ، قائلًا :

— نعم يا عزيزتى (إيزابيلا) .. إنه خصمنا الحالى ، وابن خصمنا القديم .. ذلك الفارس الأبيض ، الذى يستعين به أمير (غرناطة) ، فى كل أعماله السرية .

ورفع كأسه ، وقد برقت عيناه ببريق لا مثيل له ، مستطردًا :

— وستكون هذه عمليته الأخيرة .. وهذا وعد ملكى .

وكعادته ، جرع ماتبقى من كأسه دفعة واحدة ..

* * *

عقد الأمير (عبيدة) حاجبيه فى غضب ، وهو يهبّ من مجلسه ، هاتفًا :

— هاجمك اللصوص ؟! .. ويل لهؤلاء الملاعين .. كيف يجرؤون على التصدى لقافلة يحميها (عبيدة) ؟

قال (هاكل) ، وكأنه يحاول تهدئة الأمير :

— رويدك يا أمير العرب .. اللصوص هم اللصوص ، فى كل مكان وزمان ، ولكن ما يدهشنى هو كيف علموا بأمرنا ؟

لوّح (عبيدة) بذراعه فى حنق ، وهو يقول :

— الجميع كانوا يعلمون بأمر قدومكم ، يا رسول القشتاليين ، فلقد أعلنت هذا بنفسى ، وطالبت الجميع بعدم التعرض لكم ، حتى تصلوا إلى قصرى فى أمان .

ابتسم (هاكل) فى دهاء ، وهو يقول :

— ليس هذا ما أقصده يا سيّدى ومولاى ، وإنما أقصد أن مولاى الملك (فرناندو) ، كان قد أرسل معنا حملًا ثمينًا ، لست أدرى كيف علم اللصوص به .

سأله (عبيدة) فى اهتمام :

— أى حمل هذا ؟

حرّك (هاكل) أصابعه فى الهواء ، وهو يقول :

— إنه سيف ذهبى .. سيف من الذهب الخالص ، يرصّع الماس والزمرد والياقوت والزبرجد مقبضه .. إنه تحفة من تحف الزمان يا أمير الأمراء .

برقت عينا الأمير (عبيدة) فى لهفة ، وهو يقول فى حنق :

— وهل سرق اللصوص هذا السيف الرائع ؟

قال (هاكل) فى خبث :

— لقد تصوّروا أنهم قد فعلوا يا مولاى ، ولكنهم سرقوا فى الواقع سيفًا زائفًا .

— سأله الأمير (عبيدة) فى لهفة :

— وأين السيف الحقيقىّ ؟

أزاح (هاكل) حرملته الحمراء ، وجذب مقبض سيفه ، وهو يقول :

— ها هوذا .

انجذب المقبض الجلدى فى يده ، كاشفًا تحته مقبضًا مرصّعًا بالأحجار الكريمة ، التى تألّقت تحت أضواء المشاعل ، قبل أن يخفيها (هاكل) بقبضته ، وهو يجذب السيف الذهبى من غمده ..

وشهق (عبيدة) فى انبهار ، وهو يحدّق فى السيف الذهبى البرّاق ، ونصله الذى تلتمع فوقه عشرات الشموس الصغيرة ، من انعكاسات مشاعل القاعة ، ومدّ يده يلتقطه من يد (هاكل) ، قائلًا :

— يالها من تحفة نادرة !! .

— تركه (هاكل) يتحسس السيف الذهبى ، ويتطلّع إليه بعض الوقت ، قبل أن يقول :

— إنه مجرّد هدية متواضعة ، من مولاى الملك (فرناندو) ، لسمو الأمير (عبيدة) ، أمير (غرناطة) المقبل .

رفع (عبيدة) عينيه إليه فى حدة ، وهو يردّد :

— أمير (غرناطة) المقبل ؟!

هتف (هاكل) :

— بالتأكيد .. لن تتصوّر أننا سنهب عرش (غرناطة) ،

بعد أن نستعيدها ؟

هتف (عبيدة) فى غضب :

— ويحك يا رسول (قشتالة) .. هل توقّع ملكك أن يرشونى بسيف من الذهب ؛ لأتخلّى عن قومى ، وأسلمكم (غرناطة) ؟

قال (هاكل) ، دون أن تفارقه ابتسامته

— تسلّمنا (غرناطة)؟! .. وهل نحتاج إلى من يسلّمنا (غرناطة) أيها الأمير ؟ .. إن جيوشنا تحتشد على حدود مملكتكم الصغيرة ، وسنقتحم (غرناطة) بين ليلة وأخرى .. وينبغى أن تعلم أن جيوشكم لن تصمد أمامنا أسبوعًا واحدًا .

صاح (عبيدة) فى غضب :

— هل أتيت لتردّد هذه السخافات على مسامعى يا قشتالى ؟

أشار (هاكل) بسبّابته ، قائلًا :

— إنها ليست سخافات يا مولاى ، بل حقائق .. وأميركم سيّد بنى (الأحمر) يعلمها جيّدًا ، فجيشنا لم يعد يعتمد على فرسان قشتالة وحدها ، بل انضمّ إلينا جيش الإنجليز ، وجيوش (فرنسا) ، وأصبحنا قوة قادرة على سحق جيشكم بضربة واحدة .

شعر (عبيدة) بالتوتر ، وهو يقول :

ــ أنت تكذب أيها القشتالى ؛ فلو أنكم على هذا القدر من القوة ، لما حاولت إغرائى بالانضمام إليكم .

هزَّ (هاكل) كتفيه ، وقال :

ــ وهل طلبت منك هذا ؟

قال (عبيدة) فى حدة :

ــ ليس على نحو مباشر ، ولكن هذا السيف ..

قاطعه (هاكل) :

ــ لا يامولاى ، لاتوجِّه إلى اتهامًا جارحًا كهذا ، بمجرد شكوك بلا دليل .

تطلَّع إليه (عبيدة) لحظات فى صمت غاضب ، ثم قال فى صرامة وحزم :

ــ اسمع يا رسول (قشتالة) .. لقد منحتك وقافلتك حمايتى ، ووافقت على استقبالكم فى قصرى ؛ لأننى كنت أتصوَّر أنكم ستتفاوضون بشأن الصراع الدائر بيننا ، ولكننى لم أتصوَّر أبدًا أنكم هنا لرشوتى ، حتى أخون موطنى وقومى .

حاول (هاكل) أن يتحدَّث ، قائلًا :

ــ مولاى .. إننا ..

قاطعه (عبيدة) فى حدة :

ــ لست مستعدًا لمناقشة هذا الأمر الآن .. إننى أسبغ عليكم حمايتى حتى فجر الغد فحسب ، ومع أوَّل شعاع شمس ، أريد منكم أن تكونوا خارج قصرى ، وإلا فلست مسئولًا عما قد يصيبكم بعدها .

واندفع مغادرًا المكان كعاصفة ثائرة ، تاركًا خلفه صمتًا مطبقًا ، قطعه (فرانشسكو) ، الذى لم ينبس ببنت شفة ، منذ بداية الحديث ، وقال فى توتر :

ــ أيعنى هذا أن مهمتنا قد فشلت يا صاحب الفخامة ؟

هزَّ (هاكل) رأسه نفيًا ، وقال فى خبث :

ــ ليس بعد .

ثم أشار بطرف خفى إلى الزنجى ، الذى يرفع الأكواب عن المائدة ، هامسًا :

ــ أخشى أن أخبرك ، أمام هذا الخادم .

هزَّ (فرانشسكو) كتفيه فى لا مبالاة ، وقال :

ــ اطمئن يا صاحب الفخامة .. إنه أصمّ أبكم .. لقد تأكَّدت من ذلك بنفسى .

تطلَّع (هاكل) إلى الخادم فى اهتمام ، ثم صرخ فجأة :

ــ التفت أيها الغبى .

انتفض (فرانشسكو) للصرخة المباغتة ، فى حين لم يهتز

ثم أشار بطرف خفي إلى الزنجي ، الذي يرفع الأكواب عن المائدة ،
هامساً : أخشى أن أحدثك ، أمام هذا الخادم ..

رمش واحد في جفن الزنجي ، الذي واصل عمله في هدوء ،
وهتف (فرانشسكو) :

ــ لماذا فعلت هذا يا صاحب الفخامة ؟

ابتسم (هاكل) ، وهو يقول :

ــ ليطمئن قلبي فحسب يا قائد الفرسان .

ثم مال نحوه ، مستطردًا :

ــ والآن استمع إليّ جيدًا ، فسأخبرك بما لدى .

وقصّ على مسامعه كل شيء ..

وكانت خطته رهيبة ..

ومخيفة .

* * *



نونو

٧ ـ خيانة ..

على الرغم من ذلك الغضب ، الذى يملأ نفس (فارس) ، بعد أن خدعه القشتاليون ، ودفعوه للمخاطرة بحياته ، فى سبيل سيف زائف ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يستغرق فى نوم عميق ، على بعد مائتى متر من أسوار قصر الأمير (عبيدة) ، وهو يعلم أن خصومه بالداخل ..

هكذا علّمه الشيخ ..

أن يضمن لجسده وعقله الراحة المناسبة ، قبل خوض أية معركة عنيفة ، حتى لا يُضعف السهر والأرق والتعب من صفاء ذهنه ، وسرعة استجابته ، وقدرته على القتال وتقدير الأمور ..

وعندما حصل جسده على قسط كاف من النوم ، فتح عينيه فى بطء ، وتثاءب فى عمق ، وهو يغمغم :

ـ حان دورك يا صديقى (مهاب) .

عقد حاجبيه فى قلق ، عندما لم يجد (مهاب) على مقربة منه ، كما كان ينتظر ، فهبّ جالسا ، والتفت إلى جواده ، يسأله :

ـ أين (مهاب) يا (رفيق) ؟

أطلق الجواد صهيلًا خافتا ، وهو يهزّ معرفته فى رفق ، وكأنما فهم سؤال صاحبه ، وأعلن جهله بالجواب ، فنهض (فارس) فى حزم ، واستلّ سيفه ، وهو يدير عينيه فى المكان فى توتر ، محاولًا اختراق حجب الظلام ببصره ، بحثا عن مدرّبه وصديقه ..

كان يخشى أن يكون أحد القشتاليين قد ظفر بـ (مهاب) ، وأخذه على حين غرة ..

ولكن أذنيه التقطا حديثًا هامسًا ، يدور على مقربة منه ..

وبكل الحذر فى أعماقه ، اتجه (فارس) على أطراف أصابعه إلى حيث الصوت ..

وميّز فى وضوح صوت (مهاب) ، وهو يهمس لشخص ما :

ـ حسنًا فعلت يا رجل .. هيا .. عد إلى القصر ، وحاول أن تجمع المزيد ، واستعد لتنفيذ الخطة .

لم يسمع (فارس) جواب ذلك الشخص ، الذى تحدّث إليه (مهاب) ، ولكنه سمع صهيل جواد ، ثم وقع حوافره تبتعد فى سرعة ، ورأى (مهاب) يخرج من خلف بعض الأغصان المتشابكة ، ويقول مبتسمًا فى هدوء :

ـ مرحبًا يا (فارس) .. متى استيقظت ؟

سأله (فارس) :

ــ مع من كنت تتحدث ؟

أجابه (مهاب) فى بساطة :

ــ مع (فهد) .

سأله (فارس) فى لهفة :

ــ وما الذى فعله (فهد) هذه المرة ؟ .. وما الذى يفعله فى القصر ؟

أجابه (مهاب) ، وهو يتمنطق بسيفه ونطاقه :

ــ لقد فعل الكثير كالمعتاد .. إنه الآن داخل القصر ، فى هيئة خادم من خدم الأمير ، والكل يتصوَّر أنه أبكم أصمّ .

ابتسم (فارس) ، وهو يقول :

ــ من المؤكَّد أنه يجيد هذا الدور تمامًا .

وافقه (مهاب) بإيماءة من رأسه ، وقال :

ــ هذا صحيح ، ولقد جمع من موقعه هذا بعض المعلومات البالغة الخطورة ، بشأن القشتاليين وسيفهم الذهبى .

سأله (فارس) فى اهتمام :

ــ ما الذى جمعه بالضبط ؟

أجاب (مهاب) :

ــ لقد رفض الأمير (عبيدة) قبول السيف الذهبى ،

وأبلغ القشتاليين أنه يرفع حمايته عنهم ، اعتبارًا من فجر الغد ، وطالبهم بمغادرة قصره قبل هذا الموعد ، ولكن من الواضح أن رسول (فرناندو) هذا داهية خبيث ، فلقد أرسل أحد رجاله إلى الأمير (زياد) ، يطلب حمايته ، ويعلن أنه سيذهب إليه غدًا ، كما أطلق الرجال الثمانية الباقين فى أنحاء القصر ، يدرسون مخارجه ومداخله ، وقائدهم (فرانشسكو) برسم خريطة دقيقة له ، ستفيد هؤلاء الأوغاد حتمًا ، إذا ما هاجموا القصر يومًا .

تمتم (فارس) فى ضيق :

ــ ياله من دهاء !!

أكمل (مهاب) :

ــ والأغرب أن رسول (فرناندو) يعلم أنك أنت بالذات خلف الهجوم عليهم ، ومحاولة سرقة السيف الذهبى ، ويبدو أنهم يحسبون حسابك جيدًا .

قال (فارس) فى حزم :

ــ هذا يملؤنى فخرًا وزهوًا .

أجابه (مهاب) :

ــ ومن الضرورى أن تضيف إليهما شدة الحذر والحرص ، فمن المؤكَّد أن ذلك اليهودى يعدّ لك فخًا ما .

هزَّ (فارس) كتفيه فى لا مبالاة ، وقال :

ـــ فليعدّ ما يحلو له .

عقد (مهاب) حاجبيه ، وقال فى صرامة :

ـــ لا تستهن بخصمك أبدًا يا (فارس) .

قال (فارس) فى صوت مفعم بالثقة :

ـــ لم أستهن به يا مدرّبى ، ولكننى بدأت أفهم شخصيته وأسلوبه ، وهذا يساعدنى على أن أضع خطتى الخاصة ؛ لهزيمته .

تطلّع إليه (مهاب) فى صمت ، قبل أن يبتسم قائلًا :

ـــ أتعلم يا (فارس) .. لقد حصلت على أعظم مزيج ، يمكن أن يحصل عليه شاب فى مثل عمرك ؛ فلقد تتلمذت على يدى ، فى فن الفروسية والقتال ، وتعلّمت الحكمة من الشيخ ، أحكم حكماء (الأندلس) ، وورثت عن والدك ـــ رحمه الله ـــ قوة الشكيمة ، ورجاحة العقل ، وحسن المنشأ والمحتد ، و ..

قاطعه (فارس) :

ـــ كفى يا صديقى .. لست أهوى سماع المديح .

ثم استطرد فى سرعة ، وكأنه يبتعد عن هذا الأمر :

ـــ ولكن أخبرنى .. كيف يتصل ذلك اليهودى بالملك ؟

أشار (مهاب) بأصابعه ، قائلًا :

ـــ بالحمام الزاجل .. لقد أحضر معه عددًا كبيرًا منه .

هزَّ (فارس) رأسه ، متمتمًا :

ـــ إذن فهذه هى وسيلة الاتصال .

ثم التفت إلى القصر ، وابتسم مستطردًا :

ـــ حسنًا .. لقد عرفنا كل ما يمتلكه الخصم .

وعاد يدير رأسه إلى (مهاب) مضيفًا :

ـــ وحانت لحظة القتال .

* * *

تسلّل (فرانشيسكو) إلى الحجرة ، التى خصصها الأمير (عيدة) لـ (هاكل) ، وناوله رقعة جلدية رقيقة ، وهو يقول :

ـــ ها هوذا رسم القصر وتحصيناته .

برقت عينا (هاكل) ، وقال :

ـــ رائع .. لقد حققنا هدفنا ، فيما يختصّ بهذا القصر ، وسننتقل فجر الغد إلى قصر آخر ، فإما أن ننجح فى استمالة صاحبه إلى صفوفنا ، أو نكشف تحصيناته ، ونربح نقطة تفوّق جديدة ، على هؤلاء العرب .

ثم اتجه إلى قفص الحمام الزاجل ، والتقط منه واحدة ، ربط

الرقعة حول ساقها فى عناية ، وحملها إلى النافذة ، فأطلقها قائلًا :

ـــ هيا .. عودى إلى (قرطبة) ، وانقلى أوَّل دلائل فوزنا إلى مولاى الملك .

سأله (فرانشسكو) فى اهتمام :

ـــ ألا تتوقَّع أن يهاجمنا ذلك الفارس الأبيض مرة أخرى ، ويحاول سرقة السيف الذهبى الحقيقى ؟

ابتسم (هاكل) فى دهاء ، وقال :

ـــ بل أنا واثق من أنه سيهاجمنا هنا حتمًا ، ولقد أعددت كل شىء ليفعل ، فلقد طليت السيف الذهبى الزائف بطلاء غير ثابت ، حتى يكشف زيف السيف فى سرعة ، فيجنّ جنونه ، ويصرّ على استعادة السيف منا ، وسيحتال لدخول هــذا القصر ، ويحاول استعادة السيف الحقيقى ، وهنا سنصرخ بأن العرب قد خدعونا وخانونا ، وأرسلوا من يقتلنا فى ضيافتهم ، وسيثير هذا ثائرة الأمير (عبيدة) ، فيقاتل ذلك الفــارس الأبيض ، ويسجنه ، أو يقتله ، وسنربح نحن فى الحالين .

هتف (فرانشسكو) :

ـــ يالك من داهية !

ثم ارتبك مستدركًا :

ـــ عفوًا يا صاحب الفخامة .. إنما كنت أعنى .

أشار إليه (هاكل) ، قائلًا :

ـــ لا عليك ياقائد الفرسان .

ثم ابتسم مغمغمًا :

ـــ إننى بالفعل داهية

وقهقه ضاحكًا فى فخر ..

* * *

لم يكد القمر يتوسَّط السماء ، فى تلك الليلة ، حتى تعلّق خطّاف معدنى بحافة سور القصر ، وتدلّى منه حبل قوى ، انتهى فى قبضة (فارس) ، الذى همس لـ (مهاب) :

ـــ اتبعنى يا صديقى .

قال (مهاب) فى قلق :

ـــ أشعر أننا نرتكب خطأً ما ، فالقمر بدر ، والسمـاء خالية من السحب والغيوم ، وضوء القمر يغمر كل شىء ، كما لو كان شمسًا فضية صغيرة .

أجابه (فارس) ، وهو يبدأ فى تسلّق الحبل :

ـــ اطمئن يا صديقى ، فالحرّاس يفقدون حذرهم الزائد ، فى مثل هذه الليالى ؛ لأنهم لا يتصوّرون أن أحدًا يمكنه المغامرة بتسلّق الأسوار فيها .

قال (مهاب) ، وهو يتبعه :

ـــ وماذا لو أن أحدهم تخطّى التفكير مثلى ؟

ابتسم (فارس) ، وقال :

ـــ فلندع الله ألّا يكون بينهم مثل هذا الرجل .

واصلا تسلقهما فى خفة وصمت ، حتى بلغا حافة السور ، فتطلّع (فارس) يمنة ويَسرةً ، ولمح حارسًا يتحرَّك نحو البرج الغربى للقصر ، فهمس لـ (مهاب) :

ـــ انتظرنى لحظة .

ووثب إلى أعلى السور كقط حذر ، ثم تحرَّك فى خفة نحو الجندى ، الذى واصل سيره فى خطوات عسكرية ، حتى بلغ حائط البرج ، فاستدار ليقطع طريق العودة ، ولكنه فوجئ بـ (فارس) أمامه ، فهتف :

ـــ من أنـ ....

وقبل أن يتمّ هتافه ، كانت قبضة (فارس) قد هوت على فكه كالصاعقة ، وأسقطته فاقد الوعى ، فى نفس اللحظة التى قفز فيها (مهاب) إلى أعلى السور ، وقال هامسًا :

ـــ رفقًا بهم يافتى .. إنهم عرب مثلنا .

غمغم (فارس) :

ـــ كنت مضطرًا لهذا .

قيّد الجندى فى إحكام ، وأرقده إلى جوار حائط البرج ، وهو يقول :

ـــ معذرة يا رجل .. إنك لست المقصود بالتأكيد .

سأله (مهاب) :

ـــ متى نهاجم ؟

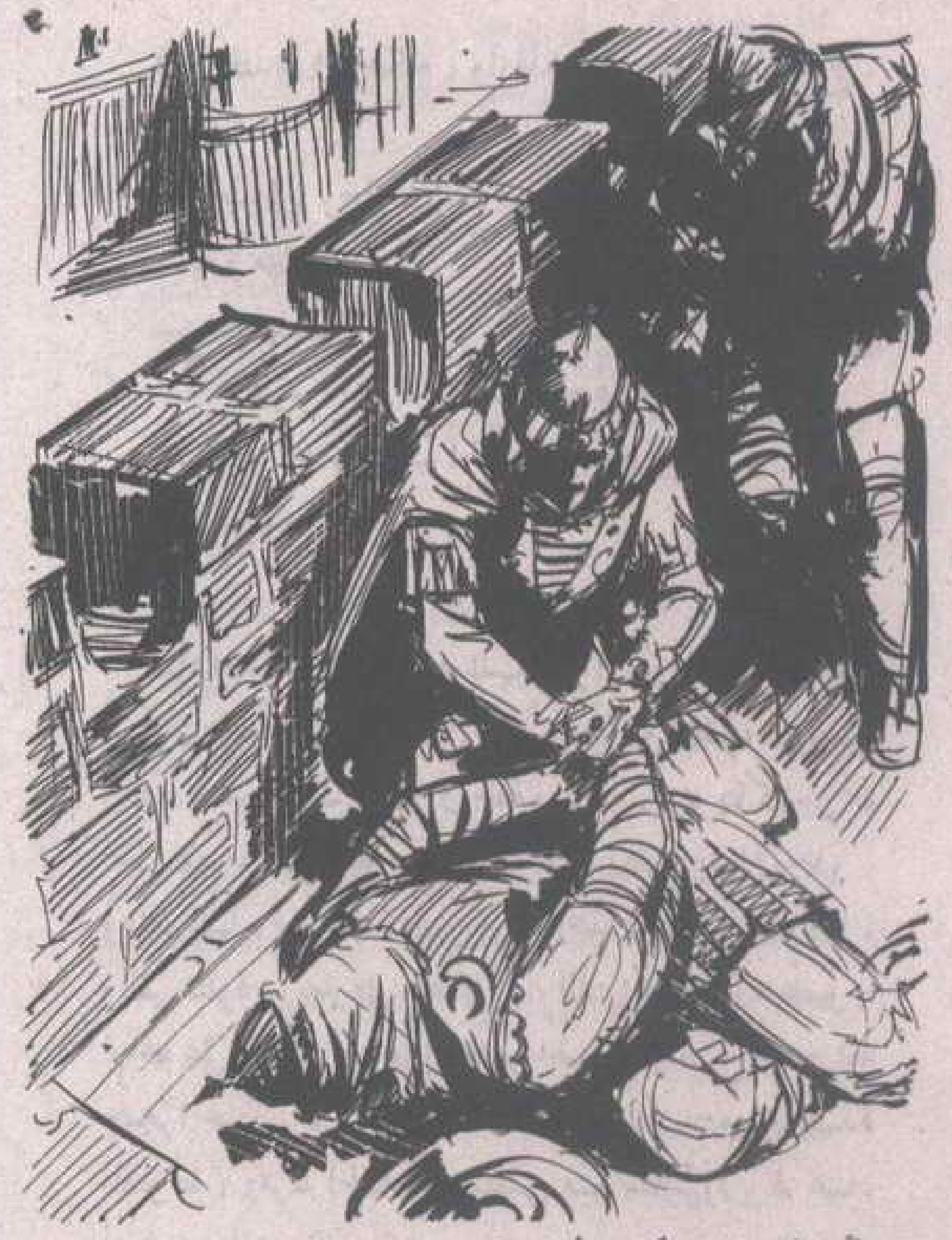
أشار (فارس) إلى نافذة حجرة (هاكل) ، وقال :

ـــ عندما ينطلق سرب الحمام من هذه النافذة .

ثم جلس ينتظر ..

* * *

ساد الهدوء والصمت جوانب قصر الأمير (عيدة) ، بعد أن أوى الجميع إلى فراشهم ، والتزم الحرّاس الهدوء ، وتسلّل (فهد) عبر ممرّات القصر فى خفة وسرعة ، وهو يتأكّد من أن أحدًا لايتبعه حتى بلغ حجرة (هاكل) ، فدفع بابها فى حذر ، ودلف إليها ، ثم توقّف ليطمئن إلى أن أحدًا لم يشعر بتسلله إليها ، وألقى نظرة سريعة على (هاكل) ، الذى غطّ فى نوم عميق ، ثم اتجه على أطراف أصابعه إلى قفص الحمام ، وأخرج من حزامه خنجرًا حادًا ، مزّق به أربطة القفص ، وأدناه من النافذة المفتوحة ، وترك الحمامات تنطلق منه متحرّرة ، ثم عاد أدراجه ، ليضع القفص فى موضعه ..



قيّد الجندى فى إحكام، وأرقده إلى جوار حائط البرج، وهو يقول:
ـــ معذرة يا رجل .. إنك لست المقصود بالتأكيد..

وفجأة ، هبّ (هاكل) من فراشه ، هاتفًا :
ـــ من أنت ؟
وقبل أن يتحرَّك (فهد) نحوه ، كان اليهودى يهتف : إلىَّ يا رجال .
وفجأةً اندفع ثلاثة من الفرسان القشتاليين إلى الحجرة ، من باب جانبى ، وهم يحملون المشاعل ، واستلّ كل منهم سيفه ، وهم يحدِّقون فى وجه (فهد) ، قبل أن يهتف أحدهم :
ـــ إنه أحد اللصوص الثلاثة .
وهنا انقض عليهم (فهد) ..
لم يكن يحمل سيفًا أو مجنًّا ، ولكنه هاجمهم بخنجره فقط ، فى شجاعة منقطعة النظير ، دون أن يطلق صرخته المعتادة ..
وبضربة من خنجره ، أسقط (فهد) أوَّل الفرسان الثلاثة ، ولكن الثانى ضربه بسيفه على ذراعه ، فتراجع (فهد) فى سرعة ، وشعر بالسيف يضرب جلد ذراعه ، ويمزِّقه ، وبالدماء تسيل على ذراعه ، فانقضّ على مهاجمه ، وغرز خنجره فى صدره ، وشعر بسيف الثالث يضرب حافة عنقه ، ويصيبه بجرح سطحى ، سالت منه الدماء فى سرعة ..
واندفع أربعة فرسان آخرون من الحجرة الجانبية ..
وكان على (فهد) أن يواجه هؤلاء الأربعة ..
ولم يكن هذا ممكنًا هذه المرة ..
لم يكن ممكنًا أبدًا .

* * *

٨ ـــ قتال فى الحصن ..

أشار (فارس) إلى أزواج الحمام ، التى انطلقت من نافذة حجرة (هاكل) ، وقال :

ـــ ها هوذا العدو قد فقد أدوات اتصاله .

قال (مهاب) فى حماس :

ـــ هل ننقضّ عليه الآن ؟

أجابه (فارس) :

ـــ نعم .. سنصطاد رجاله أوّلًا .

استلّ (مهاب) سيفه ، وهو يقول :

ـــ إنهم يقيمون جميعًا فى الحجرة المجاورة له ، كما أخبرنى (فهد) ، فيما عدا قائدهم ، الذى يقيم مع أحدهم ، فى حجرة عند طرف الممر نفسه .

قال (فارس) :

ـــ دعنا نهاجم القائد أوّلًا ، فهذا يُضعف الفريق كله عادة ، كما يقول الشيخ .

همّ بالتحرّك ، ثم توقّف فجأة ، وقال :

ـــ مهلًا .. هناك شىء ما يحدث ، داخل حجرة ذلك اليهودى .

انعقد حاجبا (مهاب) فى شدة ، وهو يهتف :

ـــ ياإلٰهى !.. لقد كشفوا أمر (فهد) ، وهم يقاتلونه .

صاح (فارس) فى قلق :

ـــ أسرع إذن يا رجل ، فلن يستطيع (فهد) مقاتلة الجميع فى آن واحد .

هتف (مهاب) :

ـــ ياإلٰهى !.. لن نصل فى الموعد المناسب أبدًا .. انظر

رفع (فارس) عينيه فى سرعة إلى نافذة حجرة (هاكل) ، واتسعت عيناه فى دهشة ، و ..

وخوف ..

* * *

هبّ الأمير (عبيدة) من فراشه ، استجابة لنداء حارسه الخاص ، الذى اقتحم حجرته ، هاتفًا :

ـــ مولاى .. مولاى .

وسأله (عبيدة) فى توتر :

ـــ ماذا هناك يا رجل ؟

أجابه الحارس فى انفعال :

ـــ هناك شىء ما يحدث ، فى جناح القشتاليين يا مولاى .

عقد (عبيدة) حاجبيه فى شدة ، وهو يهتف :

— فى جناح القشتاليين ؟ .. ياإلهى !

أسرع يرتدى ثيابه الملكية بنفسه ، ويتمنطق بسيفه ، والحارس يسأله :

— هل نوقظ فرساننا يا مولاى ؟

هزّ (عبيدة) رأسه نفيًا ، وقال :

— ويحك يا رجل .. إنهم ضيوفنا ، ونحن لاندرك مايحدث فى حجرتهم بعد .. ربما يمارسون بعض الطقوس .

أجابه الحارس فى تردّد :

— أظنهم يتقاتلون يا مولاى .

تجمّد الأمير (عبيدة) ، وهو يهتف فى ذهول :

— يتقاتلون ؟

ثم اندفع خارج حجرته ، هاتفًا :

— فلنسرع إذن ، فلست أحبّ أن يقال إن الأمير (عبيدة) لم ينجح فى حماية ضيوفه .

وانعقد حاجباه ، وهو يستطرد :

— حتى ولو كانوا من القشتاليين .

* * *

تراجع (فهد) فى خفة ، وهو يصدّ ضربات سيوف القشتاليين بخنجره ، على نحو جعله بالنسبة إليهم أشبه بشيطان مخيف مريد ، وإن لم يمنع سيوفهم من أن تبلغ صدره القوى ، وساقه ، فتنزف منهما الدماء ..

وهتف (هاكل) :

— اقتلوه .. لا تسمحوا له بهزيمتكم مرة أخرى .

صاح (أحدهم) ، وهو يبذل قصارى جهده عبثًا ، فى محاولة للنيل من (فهد) :

— من السهل أن تقول هذا ؛ فلست تقاتل ذلك الشيطان مثلنا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى وثب (فهد) بظهره إلى الخلف ، ووقف على حافة النافذة الرفيعة ، فصاح (هاكل) :

— هيا يا رجال .. انقضوا عليه انقضاضة رجل واحد .

تراجع الجميع بسيوفهم ، ثم انقضوا على (فهد) انقضاضة واحدة مشتركة ..

ولكن سيوفهم لم تبلغ (فهد) ..

لقد وثب إلى الخلف ، فى نفس اللحظة التى بدأوا فيها انقضاضتهم عليه ..

وهتف (فارس) من موقعه :

— (فهد) .. ياإلهى !

واتسعت عينا (مهاب) فى ذعر ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ولكن (فهد) هبط من ارتفاع طابقين من طوابق القصر على قدميه ، وانثنت ركبتاه فى مرونة ، ليمتصّ جسده صدمة السقوط ، ثم انفرد جسده دفعة واحدة ، وانطلق يعدو كجواد جامح ، على الرغم من جراحه العديدة ، ولم يلبث أن اختفى فى ساحة القصر ، فهتف (فارس) :

— ياإلهى !.. ياله من عملاق حقيقى !!

غمغم (مهاب) فى ارتياح :

— حمدًا لله أنه كذلك .

أومأ (فارس) برأسه موافقًا ، وقال :

— ولكن ما حدث يغيّر الكثير من الأمور .

سأله (مهاب) :

— أتقصد بالنسبة للهجوم ؟

أجابه (فارس) :

— بالطبع ، فلقد كانت خطتنا كلها تعتمد على عامل المفاجأة ، ولكن من الواضح الآن أن القشتاليين فى قمة يقظتهم واستعدادهم ، وتحفّزهم ، ومن الخطأ مقاتلتهم فى مثل هذا الموقف .

سأله (مهاب) :

— متى نهاجمهم إذن ؟

أشار (فارس) إلى نافذة (هاكل) ، وقال :

— قبل شروق الشمس مباشرة .

وعاد يلتفت إلى (مهاب) ، مستطردًا فى حزم :

— عندما يفقدون حماية الأمير عبيدة ، ويعودون أعداء .. مجرّد أعداء .

* * *

شعر القشتاليون بالحنق والغضب ، عندما أفلت منهم (فهد) ، وصاح أحدهم فى غضب ، وهو يلوّح بسيفه فى الهواء :

— لقد هرب ذلك الجبان .

أجابه (هاكل) فى انفعال :

— لست أظن باستطاعتنا وصف ذلك الليث بالجبان .. إننى لم أر فى حياتى كلها ، شخصًا يفوقه قوة وبسالة ، وهو يواجهكم جميعًا بخنجر واحد .

قال فارس ثان فى حدة :

— ولكننا هزمناه .

هتف به (هاكل) :

ـــ بعد أن جندل اثنين منكم أيها الأبطال .

قال فارس ثالث فى عناد :

ـــ فليكن .. المهم أننا قد هزمناه .

ارتفع صوت صارم ، عند مدخل الحجرة ، يقول :

ـــ من هو هذا الذى هزمتموه أيها القشتاليون ؟

التفت الفرسان الخمسة و (هاكل) إلى مدخل الحجرة ، حيث يقف الأمير (عبيدة) معقود الحاجبين فى غضب ، وإلى جواره حارسه الخاص ، وهتف (هاكل) ، وهو يندفع نحوه :

ـــ النجدة يا أمير الأمراء .. الغوث .. لقد حاولوا قتلى فى قصرك ، وتحت لوائك .

سأله (عبيدة) فى صرامة :

ـــ من الذين حاولوا قتلك ؟

أجابه وهو يلوّح بذراعيه فى هلع مفتعل :

ـــ فارس أبيض يا مولاى .. يرتدى خوذة فضية ، وحرملة خضراء ، ونطاقًا من الـ ..

ـــ قاطعه (عبيدة) فى دهشة :

ـــ كأنى بك تتحدث عن شبح من الماضى ، لا عن شخص حى فى حاضرنا .

هتف (هاكل) :

ـــ أعلم من تقصد يا مولاى الأمير .. إن هذا الذى هاجمنا هو ابنه .. لقد عرفته فور رؤيته .

صاح (عبيدة) :

ـــ ابنه ؟! .. أتعنى أن الصغير قد نجا ؟

أجابه (هاكل) :

ـــ نعم يا مولاى .. لقد نجا .. أنقذه الوزير ، وهرب به إلى (غرناطة) ، مع قائد الفرسان ، و ..

قاطعه (عبيدة) فى حدة :

ـــ وكيف علمت هذا يا رسول (قشتالة) ؟

توقّف (هاكل) ، وهو يقول فى قلق :

ـــ ماذا تعنى يا مولاى ؟

قال (عبيدة) فى عنف :

ـــ أعنى أنه من المستحيل أن تكون كل هذه المعلومات قد وردت إلى ذهنك بغتة ، لمجرّد رؤيتك شابًا يرتدى ذلك الزى الذى تصفه ، بل من المؤكّد أنك تحفظ كل هذا عن ظهر قلب .

ازدرد (هاكل) لعابه ، وقال :

ـــ أبدًا يا مولاى .. إنها مجرّد ..

قاطعه (عبيدة) فى صرامة :

ـ ثم إنه هناك فجوة عجيبة فى روايتك .

بدأ الفرسان الخمسة يتبادلون نظرات قلقة حذرة ، فى حين سأل (هاكل) الأمير (عبيدة) فى توتر :

ـ أية فجوة يا مولاى ؟

أشار الأمير إلى النافذة ، قائلاً بنفس الصرامة :

ـ شهود العيان يا رسول (قشتالة) .

عقد (هاكل) حاجبيه فى شدة ، وهو يردد فى حذر :

ـ شهود العيان ؟!

أجابه الأمير (عبيدة) فى عنف :

ـ نعم يا مندوب الشر .. لقد شاهد عدد من رجالى ما حدث عند نافذتك ، وشهدوا جميعهم أنكم كنتم تقاتلون عملاقًا زنجيًا ، حاصرتموه عند النافذة ، فقفز منها لينقذ حياته .

بدا القلق على وجوه الفرسان الخمسة ، ولكن (هاكل) قال فى هدوء :

ـ لقد كانا رجلين ، قفز أحدهما ، وهو الزنجى ، من النافذة ، أما الثانى ، فقد فرّ عبر الممر ، وهو الفارس الأبيض ، الذى وصفته لك يا مولاى .

صاح (عبيدة) فجأة :

ـ كاذب .

قفزت قبضات الفرسان الخمسة إلى سيوفهم ، فور سماعهم الصرخة الغاضبة ، ولكن (هاكل) أشار إليهم بالتزام الهدوء ، وهو يسأل الأمير :

ـ ماذا تقصد باتهامك هذا يا مولاى ؟

أجابه (عبيدة) فى غضب :

ـ أقصد أنك كاذب حقير يا رسول (قشتالة) ، فلقد أتيت مع حارسى الخاص ، عبر المدخل الوحيد للممر ، الذى يقود إلى هنا ، ولم يشاهد أحدنا فارسًا من أى لون .

وفجأة هتف الحارس الخاص للأمير ، وهو يستلّ سيفه :

ـ احترس يا مولاى .

التفت الأمير فى سرعة ، ورأى (فرانشيسكو) والفارس الأخير ، ينقضّان على حارسه ، الذى التحم معهما فى مبارزة عنيفة ، فى حين هتف (هاكل) :

ـ أوقفوا الأمير .

استلّ الفرسان الخمسة سيوفهم بدورهم ، وأحاطوا بالأمير ، فى نفس اللحظة التى غاص فيها سيف (فرانشيسكو) فى قلب حارسه الخاص ، فقال الأمير فى غضب :

ـ أتدركون ما تفعلونه أيها القشتاليون ؟

أجابه (هاكل) بابتسامة ساخرة :

— نعم يا أمير العرب .. إننا نعتقلك .

مطَّ الأمير شفتيه فى ازدراء واحتقار ، وقال :

— يالكم من خونة أنذال !! سيسحقكم رجالى سحقًا .

هزَّ (هاكل) رأسه نفيًا فى سخرية وشماتة ، وهو يقول :

— لا ياأمير العرب .. لن يجرؤ فارس واحد من فرسانك على اعتراضنا ، مادمت أسيرنا .. إننا سنغادر معك هذا القصر ، وسنعود بك إلى (قرطبة) ، وهناك سيقرِّر ملكنا العظيم (فرناندو) مايراه بشأنك .

قال الأمير فى غضب :

— أيها الأوغاد .

قهقه (هاكل) ضاحكًا ، وقال :

— بل قل : أيها المنتصرون .

وأشار إلى رجاله ، مستطردًا :

— استعدوا يا رجال .. سنغادر القصر مع الأمير .

سأله (فرانشيسكو) فى قلق :

— أأنت واثق من أن أحدًا منهم لن يهاجمنا ؟

أجابه (هاكل) :

— تمام الثقة .. إنهم يحترمون أميرهم كثيرًا ، ولن يجرؤ أحدهم على إصابته بسوء .

قال (فرانشيسكو) فى تردد :

— أرى أنه من الأفضل أن نستعد لقتال عنيف ، بدلًا من أن ..

ضرب (هاكل) حافة سريره بقبضته ، وهو يقول فى حدة :

— قلت لك لن يهاجمنا أحد منهم .

واندفع نحو النافذة ، هاتفًا :

— وها هوذا الدليل .

أطلَّ برأسه من النافذة ، وهتف :

— أيها الحرَّاس .. يا أهل القصر .. لقد أسرنا أميركم .

هبَّ (فارس) من مخبئه ، هاتفًا فى دهشة :

— أسروا الأمير ؟!

وهبَّ (مهاب) خلفه ، يهتف بدوره :

— ياللأوغاد !

أمَّا فى ساحة القصر ، فقد ساد هدوء عجيب ، أدهش (هاكل) نفسه ، قبل أن يبرز فرسان القصر من عدة مخارج ، وكل منهم يحمل شعلة مضيئة ، ويتطلَّع فى دهشة إلى النافذة ، التى يتطلَّع منها (هاكل) ، الذى هتف مرة أخرى :

— قلت لكم إننى أسرت أميركم .



لم يكد الأمير يبرز فى النافذة، حتى سرت همهمة غاضبة بين فرسانه..

لم ينبس أحدهم ببنت شفة ، فى حين قال (مهاب) فى انفعال :

— إنها أوّل مرة يحدث فيها هذا .

أجابه (فارس) ، وهو يتابع الموقف فى اهتمام :

— سمعت الشيخ يقول ذات مرة : « امنح كل إخلاصك للصديق ، ولا تثق أبدًا فى عدو »

لم يكن فرسان القصر قد أبدوا أى رد فعل بعد ، حتى أن (هاكل) جذب الأمير إلى النافذة فى عنف ، وهو يقول :

— هيا .. تحدّث إلى رجالك .

لم يكد الأمير يبرز فى النافذة ، حتى سرت همهمة غاضبة بين فرسانه ، واستلّوا سيوفهم فى حدة ، وهتف الأمير :

— إننى أرفع حمايتى عن القشتاليين .

فجّرت عبارته حماس فرسانه ، فراحوا يلوّحون بسيوفهم ، ويطلقون صيحات غاضبة ، فأزاح (هاكل) الأمير عن النافذة ، وقال فى انفعال غاضب صارم :

— اسمعونى كلكم .. سنقتل أميركم شر قتلة ، ودون أدنى تردّد ، لو لم يتمّ تنفيذ أوامرنا بالكامل .

سرت نفس الهمهمة الغاضبة ، فى حين تابع هو :

— سنخرج جميعًا من هنا ، بكل أسلحتنا وجيادنا ،

وسنحمل معنا أميركم ، حتى نبلغ منطقة آمنه ، فنتركه ونعبر الحدود إلى (قرطبة) .

ارتفع صوت غاضب من بين الفرسان ، يقول :

ـــ وما الذى يجعلنا نثق بقولك ؟

أتاه جواب (هاكل) صارمًا :

ـــ ألديك بديل آخر ؟

لم يحر أحد الفرسان جوابًا ، ثم قال أعلاهم رتبة فى غيظ :

ـــ ومتى ترحلون ؟

أتاه صوت (هاكل) مفعمًا بالظفر والنصر ، وهو يقول :

ـــ الآن .

التفت (فارس) إلى (مهاب) ، وقال :

ـــ إننا لن نسمح لهم بالفوز طبعًا .. أليس كذلك ؟

قال (مهاب) فى حسم :

ـــ هل تسألنى ؟

قال (فارس) :

ـــ ألديك خطة محدودة ؟

أجابه (مهاب) :

ـــ ليس بعد ، ولكن من المؤكد أننا لن نهاجمهم قبل خروجهم من هنا ، حتى يشعروا بالأمان ، وهم فى طريقهم إلى قرطبة .

خيّل إليه أن (فارس) لم يسمعه ، فسأله فى حدة :

ـــ هل تستمع إلىّ ؟

التفت إليه (فارس) مبتسمًا ، وهو يقول :

ـــ معذرة يا صديقى (مهاب) ، ولكن أظننى قد وجدت مفتاح الخطة .

سأله فى دهشة :

ـــ وما هو ؟

أشار (فارس) إلى نقطة بعيدة ، وقال وهو يبتسم :

ـــ بل قل : من هو ؟

تطلّع (مهاب) إلى حيث يشير (فارس) ، وتهلّلت أساريره ، وهو يقول :

ـــ لقد فهمت .

ووافق فى أعماقه على خطة (فارس) .

* * *

٩ — الأسير ..

أطلقت الأميرة (جميلة) ، من أعماق صدرها ، تنهيدة حارة ، وهى تتطلّع من نافذة حجرتها إلى القمر ، الذى يتوسّط السماء ، كقرص من الفضة اللامعة ، تحيط به النجوم كقطع من الماس ، وشرد بصرها بعيدًا لحظات ، حتى أنها انتفضت فى عنف ، عندما شعرت بيد توضع على كتفها ، والتفتت إلى صاحبة اليد هاتفة :

— لقد أفزعتنى يا (فاطمة) .

ابتسمت وصيفتها فى حنان ، وغمغمت :

— عفوًا يا مولاتى .. لم أكن أعلم أنك شاردة .

تنهدّت (جميلة) مرة أخرى ، وقالت :

— آه لو تعلمين فيم أفكرّ يا (فاطمة) .

قالت (فاطمة) مبتسمة :

— إننى أعلم يا مولاتى ما الذى يقلقك ، ويؤرق مضجعك .

ثم أردفت فى أسف :

— ولكننى أجهل ما الذى يؤرق مضجع مولاى الأمير .

التفتت إليها (جميلة) ، وهى تقول فى جزع :

— أو الذى مصاب بالأرق مثلى ؟

أومأت (فاطمة) برأسها إيجابًا ، وقالت :

— نعم يا بنيتى .. إن المشاعل لم تنطفىء فى حجرته ، حتى هذه اللحظة .

هتفت (جميلة) :

— يا للمسكين !

هرعت بسرعة إلى حجرة والدها ، وهزّت (فاطمة) رأسها فى حنان ، قائلة :

— يالحنانك يا مولاتى !

أما (جميلة) ، فقد بلغت حجرة والدها ، وطرقت بابها فى رقة ، على الرغم من القلق الذى يملأ نفسها ، وسمعت صوت والدها يقول :

— ادخل يا من تطرق الباب .

دفعت الباب فى هدوء ، وانسابت إلى الحجرة كنسيم معطّر ، وشعر بها والدها ، فالتفت إليها ، وقال فى حزن واضح :

— (جميلة) .. ما الذى يوقظك حتى هذه اللحظة يا بنيتى ؟

استكانت إلى جواره كعصفور رقيق ، وهى تقول :

— أتيت لأطرح عليك السؤال نفسه يا أبى .
هزَّ الأمير رأسه ، وأطلق تنهيدة عميقة ، وهو يقول :
— مشاكل (الأندلس) لاتنتهى يا بنيتى .
قالت فى حنان :
— ولكنك لم تنكسر أمامها أبدًا ياأبى .
قال وهو يداعب شعرها الناعم بأصابعه :
— أتعشَّم ألا أفعل أبدًا .
سألته :
— ما الذى يؤرقك الليلة إذن ؟
أجابها ، وهو يشرد ببصره بعيدًا :
— ربما كانت مشاكل اليوم عديدة يا بنيتى ، فالقشتاليون يحشدون جيشهم على الحدود ، وأمراء (غرناطة) يختلفون ، و ..
أفلت فضولها فجأة ، وهى تسأله :
— لماذا استدعيت الشيخ إذن ؟
لم تكد تنطق السؤال ، حتى عضت شفتيها ندمًا ، وخاصة عندما التفت إليها والدها فى دهشة ، وسألها فى حيرة :
— وكيف علمت أننى قد فعلت ؟
خفضت عينيها أرضًا ، وارتجفت شفتاها ، وهى تقول :

— لقد رأيته من نافذة غرفتى ، يذهب إلى جناح الحكم .
أراحها أن اكتفى بهذا الجواب ، وهزَّ رأسه ، قائلًا :
— هذا أحد مشاكل الحكم يا بنيتى ، فهناك من الأمور مايستوجب لجوئى إلى ذلك الشيخ ، وإلى تلميذه (فارس) .
لم تغب عن عينه اختلاجة جفنيها ، ولاتلك الأنفاس اللاهثة ، التى نبتت على صدرها ، عندما نطق اسم (فارس) ، ولكنه تظاهر بأنه لم ينتبه إلى كل هذا ، وهو يواصل :
— وأنا أثق بـ (فارس) هذا كثيرًا فى الواقع .
كاد يبتسم ، عندما غمغمت ، وهى تحاول مداراة وجهها ، الذى تخضَّب بحمرة الخجل :
— لست أذكره .
ولكنه نجح فى إخفاء ابتسامته ، وهو يقول :
— كيف لا تذكرينه ؟ .. إنه ذلك الفارس الوسيم المغوار ، الذى أنقذك ذات يوم ، من حصن قرطبة .
هتفت مصطنعة :
— آه .. لقد تذكرته .
اختلس النظر إليها ، وهو يحاول التطلّع عبر النافذه ، لإخفاء ابتسامته مرة أخرى ، قائلًا :
— من الجيِّد أنك تذكرينه يا بنيتى الحبيبة ، فهو شاب

رائع ، وينتمى إلى واحد من أفرع سلالتنا ، بل إلى أفضل فروع هذه السلالة ، ومحظوظ هو من يزوّجه ابنته .

تهلّلت أساريرها ، وهى تهتف فى سعادة :

ـ حقًّا ؟!

ثم تضرّج وجهها بحمرة خجل شديدة ، وأشاحت بوجهها هاتفة :

ـ ولكن مالنا و (فارس) هذا الآن ؟

وراح قلبها يرقص بين ضلوعها فى شدة ، وعجزت عن إخفاء سعادتها الجمة هذه المرة ، فأسرعت نحو باب حجرة والدها ، متمتمة :

ـ فلتنعم بنوم هانئ يا أبى .

ترك الأمير لابتسامته العنان ، وهو يتابعها ببصره ، قائلًا :

ـ وأنت أيضًا يا بنيتى .

ولكنها لم تكد تغلق الباب خلفها ، حتى تسلّل شىء من الحزن إلى ابتسامته ، وهو يتابع فى صوت شديد الخفوت :

ـ لقد فهمت يا ابنتى .. لقد فهمت .

ثم عادت عيناه تشردان مع القمر والنجوم ، مستطردًا :

ـ المهم أن يعود سالمًا ..

نعم أيها الأمير ..

المهم أن يعود ..

سالمًا ..

* * *

وقف فرسان الأمير (عبيدة) يعضون شفاههم غيظًا وندمًا ، عندما استقلّ (هاكل) وفرسان (قشتالة) خيولهم ، ووضعوا سيوفهم على رقبة الأمير ، وهم يتجهون نحو باب القصر المفتوح ، وغمغم الأمير فى سخط :

ـ هذا أحقر عمل رأيته فى حياتى كلها .

قال (هاكل) فى شماتة :

ـ ولكنه يربح .. أليس كذلك ؟

قال الأمير فى غضب :

ـ لو أننى أعلم هذا ، لما منحتكم حمايتى قط .

مسّ (هاكل) عنقه بطرف سيفه ، قائلًا فى غلظة :

ـ لم يعد هناك مجال للندم .

أجابه الأمير ، وهم يعبرون بوّابة القصر :

ـ هذا ينطبق عليك أيضًا يا رسول الشر ، فلو أننى نجوت من أسركم هذا ، فسيجتزّ سيفى عنقك حتمًا .

ابتسم (هاكل) فى سخرية ، وقال :

ـ فليكن .. افعل ما يحلو لك بى أيها العربى ، لو نجوت منا .

وفى نفس اللحظة كان قائد فرسان القصر يقول :

ــ هل سنتركهم يأخذون أميرنا هكذا .. أمام أعيننا ؟

أجابه حكيم القصر فى مرارة :

ــ وما الذى يمكننا فعله ؟

هتف قائد الفرسان فى حنق :

ــ كم أتمنى لو أمسك بتلابيب ذلك القشتالى ، وأمزّقه إربًا .

هزّ الحكيم رأسه فى أسف ، وقال :

ــ المهم أن نستعيد أميرنا حيًا ، ولتفعل بعدها ما يحلو لك .

قال قائد الفرسان :

ــ فليكن .. سأنتظر حتى يبتعدوا قليلًا ، ثم آخذ ثلة من أقوى رجالى ، و ..

قاطعه صوت (هاكل) ، وهو يهتف :

ــ قبل أن نبتعد عن هنا ، أحبُّ أن أحذركم من محاولة اللحاق بنا ، فلو شعرنا بأى نوع من أنواع المطاردة ، فسنقتل أميركم بلا تردّد .

عضّ قائد الفرسان شفتيه ، قائلًا فى غيظ :

ــ يا للحقارة !

وهتف (هاكل) برجاله :

ــ هيا .. إلى (قرطبة) .

انطلقت القافلة تعدو ، وتختفى وسط الظلام ، فهتف قائد الفرسان :

ــ لم يحدث هذا من قبل قط .. إننا نشاهد هزيمتنا بأعيننا ، دون أن نجرؤ على القتال .

وفجأة ارتفع من خلفه صهيل جواد ، جعله يلتفت إلى مصدره فى دهشة ، فرأى زنجيًا قويًا ، عارى الصدر ، يمتطى جوادًا فى لون الليل البهيم ، وينطلق فى حزم نحو بوّابة القصر ، مما جعله يهتف به :

ــ من أنت ؟ .. وإلى أين تذهب ؟

لم يتوقّف (فهد) ليجيب سؤالى قائد الفرسان ، وإنما مرق إلى جواره كليث أسود رهيب ، واختفى بدوره وسط الظلام ، فهتف القائد :

ــ من هذا بالله عليكم ؟

أجابه أحد فرسانه ، وصوته يحمل رنه ارتياح واضحة :

ــ إنه ذلك العملاق ، الذى قاتل القشتاليين فى جناحهم .

هتف القائد :

ــ وإلى أين يذهب ؟ .. ألم يسمع تحذير ذلك القشتالى ؟

ربّت حكيم القصر على كتفه ، وقال فى صوت خافت عميق :

ـــ اطمئن يا ولدى .. قلبى يحدّثنى أن ذلك الزنجى يحمل فى لونه الداكن قوة الدنيا كلها .. اطمئن ياولدى .. اطمئن .

ولكن قائد الفرسان لم يكن يشعر بالاطمئنان على أميره وسيّده ..

لم يكن يشعر بهذا قط ..

* * *

هتف (فرانشيسكو) ، وهو يعدو بجواده ، على رأس القافلة ، التى تنطلق عائدة إلى (قرطبة) :

ـــ ولكن كيف يمكن تقيم عملنا يا صاحب الفخامة ؟ .. هل نجحنا أم فشلنا ؟

أجابه (هاكل) :

ـــ من المؤكّد أننا لم نحقق النجاح المنشود يا (فرانشيسكو) ، ولكننا لم نفشل فى مهمتنا أيضًا .

قال (فرانشيسكو) :

ـــ هل تعتقد هذا ؟

هتف به (هاكل) :

ـــ بالتأكيد .. لقد أسرنا واحدًا من أكبر أمراء العرب ،

وحصلنا على رسم تخطيطى واضح لقصره ، واحتفظنا فى الوقت ذاته بالسيف الذهبى .. ألا تعتبر هذا نصرًا ؟

لم يكن هذا القدر ليقنع (فرانشيسكو) بتحقيق النصر ، وعلى الرغم من هذا فقد تمتم :

ـــ بلى .. إنه يعتبر كذلك .

واصلوا انطلاقهم لحظات فى صمت ، ثم هتف أحد الفرسان فجأة :

ـــ أنصتوا .

توقّف الكل على الفور ، وانتظروا حتى انتهت جيادهم من صهيل التوقّف التقليدى ، ثم أرهفوا أسماعهم فى اهتمام وانتباه ..

وهنا بدا لهم الصوت واضحًا ..

وقع حوافر جواد يقترب فى سرعة ..

وانعقد حاجبا (هاكل) فى غضب ، وهو يقول :

ـــ ويل لهؤلاء العرب ، لو كانوا قد أرسلوا أحدهم خلفنا .

قال الأمير فى غضب :

ـــ سأشك فى عروبتهم ، لو لم يفعلوا .

جذب (هاكل) سيفه ، ووضعه على رقبة الأمير ، وهو



يقول فى حدة :

ــ فلتدع الله ألا يكون ذلك القادم أحد رجالك ، وإلا فأقسم أن أفصل رأسك عن عنقك ، فور رؤيتى له .

ثم أشار إلى رجاله ، مستطردًا :

ــ اختفوا .

اختفى الجميع خلف الأشجار ، وراحوا يستمعون فى انتباه إلى وقع حوافر الجواد ، الذى يقترب فى سرعة ، حتى لاح القادم على ضوء القمر ، فهتف (فرانشيسكو) :

ــ إنه زميلنا (ماريو) .. الذى أرسلناه إلى الأمير (زياد) .. لا ريب أنه قد أدرك ما حدث ، فلحق بنا إلى هنا .

قال (هاكل) فى صرامة :

ــ تأكَّد أوَّلًا .

ابتسم (فرانشيسكو) لشكوك (هاكل) ، وبرز من خلف الشجرة ، ورفع سيفه هاتفًا فى وجه القادم :

ــ من أنت ؟

أوقف القادم جواده ، وقال فى سرعة :

ــ أنا (ماريو) أيها القائد .

أعاد (فرانشيسكو) سيفه إلى غمده ، وهو يقول لـ (هاكل) مبتسمًا :

ابتسم (فرانشيسكو) لشكوك (هاكل)، وبرز من خلف الشجرة، ورفع سيفه هاتفاً فى وجه القادم :ــ من أنت ؟

— ألم أقل لك ؟

ثم هتف بالفارس :

— هيا .. انضمّ إلى رفاقك .

ورفع (هاكل) سيفه عن رقبة الأمير ، وهو يقول :

— هذا أفضل .

والتفت إلى الأمير ، مستطردًا فى سخرية :

— لست أحب أن أعود إلى مولاى (فرناندو) ، بأمير عربى من قطعتين .

قال الأمير فى غضب :

— من السهل أن تقول هذا أيها الحقير ، مادمت قد جرّدتنى من سيفى ، وقيّدت معصمى خلف ظهرى ، فأنت أجبن من أن تواجهنى كرجل .

أطلق (هاكل) ضحكة ساخرة ، وقال :

— لا تحاول أيها العربى .. لن ينجح هذا فى استفزازى ، ودفعى إلى مقاتلتك سيفًا بسيف .

أتاه من خلفه صوت عربى ، يقول :

— هل ينجح هذا إذن ؟

التفت الجميع فى دهشة إلى مصدر الصوت ، ورأوا زميلهم

(ماريو) يندفع نحو جواد الأمير ، ويضربه بصفحة سيفه ، هاتفًا :

— ابتعد أيها الجواد .

صهل جواد الأمير ، وانطلق مبتعدًا عن القافلة الصغيرة ، وصاح (هاكل) :

— إنك لست (ماريو) .

وهنا نزع ذلك القادم الدرع القشتالى عن صدره ، فالتمعت حلته البيضاء تحت ضوء القمر ، وهو يقول :

— من دواعى فخرى أننى لست كذلك .

ثم رفع سيفه ، صائحًا :

— إلى القتال .

وارتفع فى السهول سوط صليل السيوف .

* * *



١٠ ــ فرسان العرب ..

امتدت أصابع (غالا) الرقيقة ، تضيء شمعة كبيرة ، فى جناح الملك (فرناندو) ، ثم التفتت إلى الملك ، الذى يتطلّع إليها فى شرود ، وانحنت أمامه ، قائلة :

ــ لماذا أصيب مولاى بالأرق الليلة ؟

مطّ شفتيه فى توتر ملحوظ ، وهو يقول :

ــ كنت أنتظر رسالة عاجلة .

رفعت حاجبيها الجميلتين فى دهشة ، وهى تقول :

ــ بعد منتصف الليل ؟

لوّح بكفه فى حنق ، قائلًا :

ــ الحرْب لا تعرف ليلًا أو نهارًا ..

تراجعت متمتمة :

ــ رسالة حرب هى إذن ؟

هبّ من فراشه ، وهو يقول فى عصبية :

ــ نعم .. هى كذلك .

واتجه إلى نافذة جناحه ، يتطلّع إلى السماء فى توتر ، وكأنه ينتظر شيئًا ما ، فلاذت (غالا) بالصمت ، حتى التفت إليها بغتة ، وقال فى حنق :

ــ هل تؤمنين بإغراء المال يا (غالا) ؟

أجابته على الفور :

ــ بالطبع يا مولاى .

سألها فى اهتمام :

ــ لماذا أجبت بالإيجاب بهذه السرعة ؟

ابتسمت وهى تقول :

ــ لأن الجواب لا يحتاج إلى تفكير طويل يا مولاى ، فللمال سحر على كل القلوب والنفوس .

عقد حاجبيه ، وهو يقول :

ــ ليس كلها .

قالت فى هدوء :

ــ وهل هناك من يمكنه مقاومة إغراء المال ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يمطّ شفتيه فى حنق ، ثم قال :

ــ نعم .. هناك من يمكنهم مقاومة إغراء المال ..

وزفر فى عصبية ، قبل أن يتابع :

ــ لقد تصوّرت فى لحظة أن للمال سحرًا لا يمكن مقاومته ، ولكننى الآن ، وبعد تفكير عميق ، على ضوء القمر ، أرى أننى كنت مخطئًا .

سألته فى خفوت :

لماذا يا مولاى ؟

أجابها ، وهو يعود للتطلّع إلى السماء :

ـ لأن المال يمكن الحصول عليه من مصادر شتى ، وبريقه قد يخدع البعض ، أو يبدو كضوء باهت فى عيون البعض الآخر .

تمتمت فى حيرة :

ـ عفوًا يا مولاى .. لست أفهمك الليلة .

قال فى حنق :

ـ لا داعى لأن تفهمى .

لاذت بالصمت ، بعد أن شعرت بتوتره ، فى حين تطلّع هو إلى القمر ، وقال فى عصبية :

ـ ما الإغراء الذى يصعب مقاومته ؟.. ما هو ؟

صمت لحظات ، وهو يفرك كفيه فى توتر ، ثم برقت عيناه بغتة ، والتفت يحدّق فى وجه (غالا) الفاتن لحظات ، وهتف :

ـ بالطبع .. أنت هو ذلك الإغراء ، الذى تصعب مقاومته يا عزيزتى (غالا) .

هتفت (غالا) فى دهشة :

ـ أنا ؟!

أمسك كتفيها فى حماس ، وهو يقول :

ـ بالطبع يا (غالا) .. ياإلهى !! .. كيف لم أنتبه إلى ذلك ؟

بدأت تفهم فكرته ، فهتفت :

ـ مولاى !

سألها بكل حماسه :

ـ أخبرينى يا (غالا) .. أما زلت تتمنين الانتقام من ذلك الفارس الأندلسى ، الذى قتل (رودريك) ؟

انعقد حاجباها ، وفقد وجهها عذوبته ، وهى تقول فى شراسة :

ـ إننى لم أتنازل عن هذا أبدًا .

قهقه ضاحكًا ، وهتف :

ـ رائع يا (غالا) .. رائع .

انتفضت (غالا) ، عندما سمعت من خلفها صوت الملكة (إيزابيلا) ، وهى تقول فى غضب واضح :

ـ ماهو هذا الرائع يا جلالة الملك ؟

ارتجفت (غالا) ، خوفًا من مليكتها ، فى حين لم يبد أدنى اهتمام على وجه (فرناندو) ، وهو يقول :

ـ إنها فكرة رائعة ، قفزت إلى ذهنى بغتة .

قالت فى حدة :

ــ فكرة تخصّ بـ (غالا) ؟

لوَّح بكفه ، قائلا :

ــ بالطبع .

انعقد حاجباها فى غضب ، وهى تلتفت إلى (غالا) ، وتفرغ فيها غضبها ، هاتفة :

ــ ماذا تفعلين هنا ؟

ارتبكت (غالا) ، وهى تقول :

ــ إننى .. لقد ..

قاطعها (فرناندو) فى صرامة :

ــ أنا طلبت منها الحضور إلى هنا ، وليس عليها سوى الطاعة .

تضاعف حنق (إيزابيلا) ، عندما انتزع (فرناندو) منها فرصة الثورة على (غالا) ، فلوَّحت بكفِّها فى عصبية ، قائلة :

ــ عودى إلى حجرتك يا (غالا) .

أسرعت (غالا) تغادر الجناح الملكى ، دون أن تستأذن الملك كما ينبغى ، وانتظرت (إيزابيلا) حتى سمعتها تُغلق الباب خلفها ، ثم قالت فى غضب :

ــ لقد حذّرتك أكثر من مرة من محاولتك إغواء وصيفتى .

قال فى حزم شديد :

ــ كفى يا (إيزابيلا) .. لست مستعدًا لمناقشة مثل هذه الأمور التافهة الآن .

هتفت :

ــ هل تتظاهر بالعصبية والغضب ، لتتفادى تورّطى و ..

قاطعها فى حدة :

ــ لقد فشلت خطة السيف الذهبى .

صدمتها عبارته ، فاتسعت عيناها فى شدة ، ونسيت أمر (غالا) ، وهى تهتف :

ــ فشلت ؟ .. كيف علمت ؟

أجابها فى سخط :

ــ كان المفروض أن تصلنى رسالة منذ قليل ، لو أن الأمور تسير على مايرام ، ولكنها لم تصل وهذا يعنى أن شيئًا ما قد أفسد الخطة كلها .

غمغمت فى قلق :

ــ ربما ارتبك الحمام الزاجل ، لعدم قدرته على الطيران ليلا ، أو ..

قاطعها :

ــ هذه الطيور كانت مدرّبة على الطيران فى الظلام الدامس .

حاولت أن تجد تبريرًا آخر ، وهى تقول :

ـــ ربّما حدث تعديل فى الخطة ، أو ..

لم يمهلها هذه المرة أيضًا ، وهو يقاطعها فى حزم :

ـــ لقد فشلت الخطة .. خذيها من خبير مؤامرات قديم .

ثم التفت إليها ، مستطردًا :

ـــ ولكن لدى خطة أخرى رائعة .

قالت فى غضب :

ـــ وهل تعتمد هذه الخطة الأخرى على (غالا) ؟

أجابها فى برود :

ـــ إنها تعتمد عليها تمامًا .

وعاد يتطلّع إلى السماء ، مستطردًا :

ـــ وعلى ذكائى أيضًا .

وبرقت عيناه فى دهاء .. وشراسة ..

* * *

لم يكد (فارس) يكشف عن شخصيته ، حتى انقضّ على الفرسان السبعة ، وهوى بسيفه على سيوفهم فى قوة ، مستغلًا عامل المفاجأة ، فصاح (هاكل) :

ـــ تكاتلوا عليه يا رجال .

ولكن سيف (فارس) كان قد خفّض عددهم بالفعل إلى ستة ، وما زال يقاتل السيوف الستة فى قوة أدهشت الفرسان بالفعل ..

لقد كان صغير السن ، كما يبدو واضحًا ، وعلى الرغم من هذا كانت ضرباته قوية عنيفة ، تهوى على سيوفهم كالصواعق ، وترتفع عنها كالرياح ..

وجواده أيضًا كان يتحرَّك فى خفة وسرعة ، فيدور من فارس إلى آخر ، كما لو كان قد نما وترعرع فى حومة قتال ، يتنازلون فيها ليل نهار ..

وعلى الرغم من هذا ، كان من المستحيل أن ينجو (فارس) من هؤلاء الخصوم الأشدَّاء ، وهو يقاتلهم وحده ، ولقد أدرك (فرانشيسكو) هذا ، فصاح بفرسانه :

ـــ أحيطوا به ، وأغمدوا سيوفكم فى جسده .

زلزل قلوبهم صوت صارم ، يهتف من خلفهم :

ـــ محال أيها الأوغاد .

وقبل أن يلتفتوا إلى مصدر الصوت ، كان (مهاب) ينقضّ عليهم كالإعصار ، فينتزع سيفه روح أحدهم ، ثم يضرب سيف الثانى ..

وأصبح القتال يدور بين بطلينا ، وخمسة من أقوى فرسان (قشتالة) ..

وفى هذه الأثناء ، كان جواد الأمير ينطلق على غير هدى ، والأمير يحاول الحفاظ على توازنه فوقه ، وهو مقيَّد المعصمين

خلف ظهره ، ويهتف به :

ـ مهلًا أيها الجواد .. مهلًا .. إننى سأسقط من فوقك ، فيدقَّ عنقى .. مهلًا .

شعر بعجزه عن البقاء على متن الجواد ، وهو يتشبَّث بقدميه فحسب ، ومال جسده ، وانزلق وهو يهتف :

ـ اللعنة !

وفجأة بلغه جواد أسود قاتم ، وامتدت يدان قويتان ، فأمسكتا به ، ومنعتاه من السقوط ، ثم أوقفتاه على الأرض فى رفق ..

والتفت الأمير إلى صاحب اليدين القويتين فى دهشة ، وبدت له ملامحه قاتمة أكثر مما اعتاد ، على ضوء القمر ، فسأله فى حيرة :

ـ من أنت ؟ .. إنك أحد الخدم الجدد فى قصرى .. أليس كذلك ؟

لم يجبه (فهد) بحرف واحد ، وإنما رفع سيفه على نحو جعل الأمير يهتف :

ـ ماذا ستفعل ؟

ولكن سيف (فهد) هوى على قيد معصمى الأمير فحسب ، وحرره بضربة واحدة ماهرة ، فهتف الأمير :

ـ رائع .. كيف فعلتها ؟

ومرة أخرى لم يحظ بجواب من (فهد) ، الذى انتزع من سرج جواده سيفًا آخر ، ناوله إلى الأمير فى صمت ، فحدَّق الأمير فى السيف بدهشة ، وهتف :

ـ ربَّاه ! .. إنه سيفى .. كيف حصلت عليه ؟ .. لقد



وفجأة بلغه جواد أسود قاتم ، وامتدت يدان قويتان ، فأمسكتا به ، ومنعتاه من السقوط ، ثم أوقفتاه على الأرض فى رفق ..

تركته فى حجرتى ، قبل أن أذهب للقاء هؤلاء الـ ..

بتر عبارته ، عندما رأى (فهد) يشير إلى نقطة ما ، فقطب جبينه ، وهو يسأله :

ــ ماذا هناك ؟

لم يكن يحتاج بعدها إلى أن يرهف سمعه ، فقد بدا له وقع حوافر الجواد ، الذى يقترب فى سرعة واضحًا ، مما جعله يتطلع إلى مصدره ، قائلا :

ــ أعدو هو أم صديق ؟

جذب (فهد) عنان جواده ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وانطلق مبتعدًا فى اتجاه آخر ، فغمغم الأمير :

ــ عجيب أمر هذا الزنجى .. إنه أبكم أصمّ كما أذكر .. ولكن كيف يظهر هكذا ؟ وكيف ..

قبل أن يتمّ عبارته ، برز أمامه الجواد القادم وراكبه ..

وبرقت عينا الأمير ، وهو يقول :

ــ إذن فهو أنت .

عقد (هاكل) حاجبيه فى شدة ، وهو يقول :

ــ ألم تبتعد كثيرًا ؟ .. هذا من حسن حظك ، ومن سوء حظى أيها العربى .

رفع الأمير سيفه فى وجه (هاكل) ، وهو يقول فى حزم :

ــ أو العكس أيها القشتالى .

استلّ (هاكل) سيفه فى حركة سريعة ، وصاح :

ــ سنرى أيها العربى .. سنرى .

وانقض بسيفه وجواده على الأمير ..

وتقارعت السيوف !

* * *

١١ ــ الذهب ..

على الرغم من التفوّق العددى للقشتاليين ، إلا أن سيوفهم لم تنجح فى الوصول إلى (فارس) و (مهاب) أبدًا ، فقد كان بطلانا يصدّان هجمات سيوف الفرسان الخمسة فى مهارة وبراعة ، وإن منعهما هذا من توجيه ضرباتهما بدورهما ..

وهتف (فرانشسكو) فى غضب :

ــ ماذا أصابكم يا فرسان البلاط ؟.. اضربوا بقوة أكثر وأكثر ..

ولكن فجأة انطلقت صرخة (فهد) ، واندفع الزنجى إلى ساحة القتال ..

وفى لحظة واحدة اخترق سيفه صدر أحد الفرسان ، وتعادلت كفة القتال ..

أربعة من القشتاليين ، فى مواجهة ثلاثة من أقوى فرسان العرب ..

وأدرك (فرانشسكو) على الفور أن اللعبة كلها قد فشلت ، وأن الفوز لن يكون من نصيبه ونصيب رجاله أبدًا ..

ولم يضع قائد الفرسان القشتالى لحظة واحدة ..

لقد جذب عنان جواده ، وانطلق هاربًا ، وهو يحمل معه

السيف الذهبى .

وهتف (مهاب) :

ــ احترس يا (فارس) .. إنه يفرّ بالسيف الذهبى .

كان هذا الهتاف كافيًا ، لينتزع (فارس) سيفه من حومة القتال ، ويجذب معرفة جواده (رفيق) ، وهو يهتف به :

ــ خلفه يا (رفيق) ..

وانقسم ميدان القتال إلى ثلاثة ساحات ..

فى الساحة الأولى كان (فهد) و (مهاب) يقاتلان آخر ثلاثة من فرسان البلاط الملكى القشتالى ..

وفى الساحة الثانية يتقارع سيفا الأمير (عبيدة) و (هاكل) ..

وفى الثالثة يطارد (فارس) (فرانشسكو) ؛ لاستعادة السيف الذهبى ..

وكل هذا فى لحظة واحدة ..

لقد أطاح سيف (فهد) بفارس قشتالى آخر ، وأصبح القتال يدور بين عربيين وقشتاليين ، وهنا جاء دور الكفاءة ، فلقد انفرد كل من (فهد) و (مهاب) بخصمه ، وراح (فهد) يهوى على سيف الفارس القشتالى بضربات عنيفة ، والفارس يتراجع أمامه فى توتر ، باحثًا عن مجالٍ للهروب أو

الفرار ، ثم لاحت له فرصة لطعن (فهد) فى مقتل ، فاندفع بسيفه نحو قلب هذا الأخير ، وهو يصرخ :

ــ مت أيها الزنجى .. مت .

ولكن فجأة ارتفع سيف (فهد) نحو صدره ، وشهق القشتالى ، واخترق السيف صدره بلا تردد ..

وجحظت عينا القشتالى ، ثم هوى عن جواده جثة هامدة ..

وفى حزم ، مسح (فهد) الدماء عن سيفه ، ثم دفعه فى غمده بقوة ، والتفت يتطلع إلى (مهاب) ، الذى لم يكن قد انتهى من قتاله بعد ..

وكان (مهاب) يقاتل خصمه فى قوة مدهشة ، ويجبره على التراجع أمامه فى عنف ، ولكن الفارس القشتالى استجمع قواه ، وكرّ على (مهاب) كرة قوية ، كاد ينتزع بها سيف (مهاب) ، وعلى الرغم من هذا ، فإن (فهد) لم يتحرّك من مكانه قيد أنملة ..

كان يترك لـ (مهاب) القتال كله ، دون تدخل ..

إنه يعرف (مهاب) ..

ويثق به ..

وكانت ثقته فى موضعها ..

لقد تفادى (مهاب) ، أستاذ الفروسية والسلاح ، انقضاضة القشتالى ، ثم هوى على سيفه بضربات متلاحقة عنيفة ، أجبرته على التراجع ، ودفع سيفه نحو مقبض سيف القشتالى ، ثم أداره حوله فى سرعة مربكة ، وانتزعه من يد القشتالى بحركة بارعة قوية ، وأطاح به بعيدًا ، فشحب وجه الفارس ، وحدّق فى سيف (مهاب) فى رعب ، وهو يتوقع أن يخترق صدره ، بين لحظة وأخرى ، ولكن (مهاب) أعاد سيفه إلى غمده ، وقال فى صرامة :

ـــ اذهب .

اتسعت عينا القشتالى فى دهشة ، ولم يصدّق أنه قد نجا ، إلا أنه لم يشأ إضاعة الفرصة ، فجذب عنان جواده ، وفرّ هاربًا ، لا يلوى على شىء ..

وهنا فقد تحرّك (فهد) نحو (مهاب) وربّت على ظهره فى حرارة ، فالتفت إليه (مهاب) وهو يلهث ، وقال :

ـــ أشكرك يا صديقى ، ولكننى أظن أن هزيمة ذلك القشتالى قد استغرقت منى وقتًا أطول مما ينبغى .

غمغم (فهد) بصوته العميق :

ـــ كنت رائعًا .

تنهد (مهاب) ، وقال :

ـــ ليس كالأيام الخوالى يا صديقى .. لابد أن نعترف بمرور الزمن .. إننى أتخطى مرحلة الشباب الآن .

وتطلّع ببصره إلى حيث اختفى (فارس) خلف (فرانشسكو) ، وأضاف :

ـــ ولم أعد مثله .

ثم جذب عنان جواده ، مستطردًا :

ـــ هيا يا (فهد) .. دعنا نلحق به .

وفى نفس اللحظة ، كان الأمير (عبيدة) يراوغ (هاكل) ، ويصدّ ضربات سيفه فى براعة ، وهو يجرى على قدميه ، أمام جواد هذا الأخير وسيفه ..

ثم لاحت لحظة مناسبة ، انقضّ فيها الأمير على (هاكل) ، ودفعه من قدمه ، هاتفًا :

ـــ اهبط من عليائك يارجل .

اختلّ توازن (هاكل) ، وسقط عن جواده ، وارتطم ظهره بالأرض فى قوة ، وتوقّع أن يستغل الأمير سقوطه ، فينقضّ بسيفه على صدره ..

ولكن الأمير لم يفعل ..

لقد وقف صامتًا ، شامخًا غاضبًا ، ينتظر حتى استعاد (هاكل) توازنه ، وهبّ واقفًا على قدميه ، يسأله فى دهشة :

ــ لماذا لم تقتلنى ، عندما لاحت لك الفرصة ؟

أجابه الأمير ، وهو يرفع سيفه فى وجهه :

ــ لقد كنت ساقطًا ، ونحن العرب لانضرب ساقطًا أو أعزل .

ضاقت عينا (هاكل) ، وتألقتا ببريق ساخر ، وهو يقول :

ــ أنتم العرب ؟! .. يا للسخافة !.. ستدفع ثمن شهامتكم هذه غاليًا أيها الأمير ..

وقفز نحوه صارخًا :

ــ استعدّ للموت .

وهوى سيفه على صدر الأمير ..

* * *

كان (فرانشسكو) يحثّ جواده على الانطلاق بأقصى سرعة ، وعلى الرغم من هذا ، فقد سمع وقع حوافر جواد (فارس) يقترب منه كثيرًا ، فصاح بجواده فى حنق :

ــ انطلق أيها اللعين .. انطلق .

ولكن جواده كان منهكًا مرهقًا ، فى حين كان (رفيق) قويًا عنيدًا ، لم يلبث أن أصبح ينطلق بمحاذاة جواد (فرانشسكو) ، الذى أصابه الذعر ، عندما رأى (فارس)

ينطلق إلى جواره ، فرفع سيفه ، وحاول أن يضرب به (فارس) ، وهو يصرخ :

ــ ابتعد أيها العربى .. ابتعد .

ولكن (فارس) انحنى فى مرونة مدهشة ، متجاوزًا ضربة السيف ، ثم قفز من جواده ، وتعلّق بوسط (فرانشسكو) ، ودفعه معه إلى الأرض ، ليرتطما بها فى عنف ، وهبّ واقفًا على قدميه ، وهو يقول فى صرامه :

ــ استسلم أيها القشتالى .. لقد خسرت المعركة .

نهض (فرانشسكو) ممسكًا بسيفه ، وهو يقول فى عصبية :

ــ لم نخسرها تمامًا ، كما تظن أيها العربى .. لقد نقلنا رسم القصر إلى جيشنا ، ولن يكون اقتحامه عسيرًا ، عندما تحين اللحظة المناسبة .

ابتسم (فارس) ، وأخرج من جيبة رقعة مطوية من الجلد الرقيق ، فردها أمام (فرانشسكو) ، قائلًا :

ــ أتقصد هذه ؟

حدّق (فرانشسكو) فى الرقعة بذهول ، وهتف :

ــ كيف حصلت عليها ؟

أجابه (فارس) فى بساطة :

— بسهم واحد يا رجل .. ولقد كان طعم الحمامة لذيذًا ، عندما طهوناها مع بعض الأرز .

احتقن وجه (فرانشسكو) فى غضب ، وصاح :

— أيها العربى الحقير .

وانقضّ بسيفه على (فارس) ، الذى استقبله على صفحة سيفه ، وهو يقول فى صرامة :

— العربى ليس حقيرًا أيها القشتالى .

ثم دفع السيف ، وهوى عليه بضربة عنيفة ، مستطردًا :

— فهو لا يخون من استضافه .

وأعقبها بأخرى أكثر عنفًا ، متابعًا :

— ولا يقتل من أولاه ظهره .

صرخ (فرانشيسكو) ، وهو يستعيد مبادرة الهجوم :

— كل هذا لا قيمة له أيها العربى .

ومال جانبًا ، وهو ينقضّ على قلب (فارس) بسيفه ، مستطردًا :

— المهم من ينتصر فى النهاية .

ولكن (فارس) تفادى سيفه فى مهارة مدهشة ، وانحنى فى رشاقة ، وهو يضرب بسيفه فى حزم وقوة ..

وشهق القشتالى فى ألم ، واصطبغت عيناه بلون الدم ، ثم

انتفض ، عندما انتزع (فارس) سيفه من قلبه ، وهوى على وجهه عند قدمى (فارس) ، الذى قال فى هدوء :

— صدقت أيها القشتالى .

ودسّ سيفه فى غمده ، مستطردًا :

— المهم من ينتصر فى النهاية .

أتاه صوت (مهاب) ، وهو يقول :

— صدقت يا فتى .

التفت إليه (فارس) فى هدوء ، وقال فى أسف :

على الباغى تدور الدوائر يا صديقى !. إننى أكره القتل وإراقة الدماء ، ولكن ..

أكمل (مهاب) :

— للضرورة أحكام .

أومأ (فارس) برأسه موافقًا ، وقال فى أسى :

— نعم .. هذا صحيح .

وانحنى يلتقط السيف الذهبى ، ثم اعتدل يسأل (مهاب) :

— ولكن أين (فهد) ؟

أجابه (مهاب) :

— لقد رحل .



وشهق القشتالى فى ألم ، واصطبغت عيناه بلون الدم ، ثم انتفض ، عندما انتزع (فارس) سيفه من قلبه ، وهوى على وجهه عند قدمى (فارس) ..

هتف (فارس) فى دهشة :

ــ رحل ؟!

أومأ (مهاب) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ نعم يا (فارس) .. لقد راقب معى نهاية صراعك مع ذلك القشتالى ، ورآك تنتصر عليه ، فأدرك أن مهمته قد انتهت ، ورحل .

قال (فارس) فى ضيق :

ــ ألا يبقى ليتحدّث إلىّ قليلًا ؟

غمغم (مهاب) :

ــ إنه لا يميل إلى الحديث .

أتى من خلفهما صوت يقول :

ــ وهذا أروع ما فيه .

التفت الاثنان إلى الأمير (عبيدة) ، الذى يمتطى جواد (هاكل) ، وذراعه اليسرى تنزف من جرح سطحى ، وهتف (فارس) :

ــ مولاى .. أأنت بخير ؟

ابتسم الأمير ، وهو يقول :

ــ نعم يا فتى .. لقد أقسمت أن أقتل ذلك القشتالى الحقير ، ولقد بررت بقسمى .

ثم أشار إلى السيف الذهبى ، الذى يحمله (فـارس) ، وأضاف :

ـــ وأرى أنك قد حصلت على السيف اللعين كذلك .

أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، فقال الأمير :

ـــ حطمه يا فتى ، ووزع ثمنه على فقراء العرب ، فهذا الشيء اللعين كاد يفسد قضيتنا كلها .

أجابه (فارس) :

ـــ سأسلمه إلى الأمير (محمد بن الأحمر) .. وليتخذ هو ما يراه بشأنه .

قال (عبيدة) فى ارتياح :

ـــ هذا أفضل قرار يا ولدى ، ولكننى أريدك منك أن تبلغ الأمير (محمد) رسالة خاصة منى ، عندما تلتقى به .

وابتسم مستطردًا :

ـــ أخبره أن أمة العرب بخير ، ولن ينجح أى مخلوق فى تقطيع أواصرها .. قد نخسر (الأندلس) ، ولكننا لن نخسر قيمنا وعظمتنا أبدًا ، حتى ولو واجهنا أقوى سيف فى الدنيا ، وحتى لو كان هذا السيف هو السيف الذهبى نفسه .

وعندما انطلق الثلاثة ، عائدين إلى قصر الأمير (عبيدة) ، كانت الشمس ترسل أوّل خيوطها الذهبية فى السماء .. سماء (الأندلس) .

* * *

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٤٦٨٤
٩٧٧ / ٢٦٦ / ٠٠٣ / ٢



٣

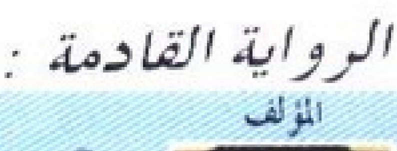
فارس الأندلس

من البطـــولات العربيـــة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

السيف الذهبى

● مع محاولاتهم المستمرة ، لتشتيت صفوف العـرب فى (الأندلس) ، أرسل ملك القشتاليين مندوبًا شيطانيًا ، إلى أحد أمراء العرب ، محاولًا إغوائه بسيف ذهبى خالص ، وكان على (فارس) تحطيم هذا الإغراء ، قبل أن تشتعل الفتنة ..

فهل ينجح (فارس الأندلس) ؟ أم ينجح ذلك السيف .. (السيف الذهبى) ؟



الرواية القادمة : الفارس الأسود

المؤلف



د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمـــن فى مصـــر
وما يعادله بالدولار الأمريكي